حق اليقين

(٢٥ دليلاً على صدق نبوته)

صلى الله عليه وسلم

تأليف

الدكتور عبد المحسن زبن المطيري

رئيس قسم التفسير والحديث بكلية الشريعة - جامعة الكويت




حق اليقين

علم يُنتفع به

الطبعة الأولى
٢٠١٩ م - ١٤٤٠ هـ

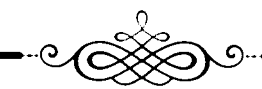


الجديد النافع للنشر والتوزيع
Al-Jadeed Al-Nafi3 for Publication & Distribution

حولي - شارع المثنى - مجمع البدري - محل رقم ١٤
Mob. +965 67644426



jadeednafi3



الموزع الرسمي



السعودية: +966541297982 القاهرة : 201022332041 + +201110117447 المغرب : +212522452084


بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد للَّه الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، المؤيد بالكتاب المتين ودلائل الحق المبين، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فقد ظهر في هذا الزمن فئام من الناس قذفت النبي ﷺ بالكذب السب والنبز والتنقص؛ ظنًا منهم أن هذا يرد أهل الإسلام عن دينهم أو ينقص محبتهم لنبيهم ﷺ، ولم يعلموا أن الدين في قلوب أصحابه كالجبال، كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ [إبراهيم: ٤٦]، أي: وما كان مكرهم ليزول منه الإيمان الراسي في قلوب أصحابه كالبجال الرواسي(١).

ونحن لن نقابل السب بالسب - كما يفعل ضعيف الحجة - بل نقابلهم بالأدلة والبراهين والحجج، مع أن الحق أبلج والباطل لجلج، ولكن حتى لا يكون لمعترض حجة، ولتتضح لطالب الحق المحجة، فكان هذا الكتاب «الأدلة الجلية على صدق خير البرية ﷺ».

ولقد جمعت في هذا الكتاب بعض أدلة صدق النبي ﷺ التي بها تتضح

---

(١) لأن من معاني (إن) هو (ما)، كما في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٣]، وقوله: ﴿وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ [فاطر: ٤١]، وهو أحد القولين في تفسير هذه الآية.

نبوته ويتبين صدقه الواضح في كل ما يقول، وهذه الأدلة مأخوذة من سيرته وأفعاله وأقواله وشهادات الناس - أعداء كانوا أو موافقين - وغيرها من الأدلة العقلية.

وكثير من هذه المعاني مأخوذة من كلام الذي أسلموا أو أنصفوا كما سيأتي.

ثم أَتْبَعَتُ ذلك بمبحث التدليل على أن القرآن ليس من النبي ﷺ؛ وفيه أدلة عقلية أخرى على صدق النبي ﷺ، فإذا ثبت أن النبي ﷺ صادق وأن القرآن من اللَّه ﷻ وليس منه؛ دل هذا على صدق دين الإسلام وصحته.

وأتبعت هذين البحثين بملحق فيه الرد على من أنكر إحدى معجزات النبي ﷺ وتأثر الكثير من الناس بها، وفيه أدلة أخرى عقلية.

وأسأل اللَّه أن ينفع به قارئه، ويجعله نصرًا للرسول ﷺ في الحياة وذخرًا بعد الممات.

* * * * *

التمهيد

إن إرسال الرسل من مقتضيات العقل؛ لأن الفِطر والعقول دلتنا على وجود الخالق ﷻ وأنه المستحق للعبادة، ولكن العبادة لا يمكن الاهتداء لمعرفة صفتها وتفصيلها إلا عن طريق واسطة عن اللَّه ﷿، يخبرنا بصفتها التي يحبها اللَّه ﷻ، ويخبرنا عما يحل وما يحرم وما ينفعنا وما يضرنا(١)، لذلك قال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٤]، وقال ﷻ: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال ﷻ: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ [طه: ١٣٤]، وقال ﷿: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ٤٧]؛ فالبشرية تحتاج إلى رسول يهديها إلى معرفة ربها، ومعرفة ما يحب ربها، ويدلها على النجاة في الآخرة، وحتى يجيب لها نداء الفطرة الإنسانية، ويهديها إلى الأخلاق القويمة، ويحقق الحاجة الماسة إلى القدوة، ويحقق العدل والحكمة والرحمة.

إذن فإرسال الرسل تشهد بصدقه العقول الصحيحة، وهو أيضًا واقع عملي؛ فإن التاريخ لا يزال يخبرنا عن الكثير من الرسل والأنبياء وحالهم مع قومهم، وكيف كانت لهم الغلبة والنصرة دائمًا؛ لذلك لما أنكرت قريش على النبي ﷺ رسالته، قال له اللَّه آمرًا له بالاستدلال بالتاريخ

(١) انظر: فتاوى ابن تيمية (١٩/ ٩٤).

والواقع: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩].

فإذا كان العقل والواقع والشرع يدلون على أهمية إرسال الرسل[١]؛ لم يجز إذن إنكار بعثة الرسل، بل الواجب هو طلب الدليل من مدعي الرسالة والنبوة على رسالته، من باب قوله: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

وهذا ما فعله الكثير من الأمم السابقة إذا أُرسل إليهم رسول أو ادَّعى النبوة قالوا: ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ﴾ [البقرة: ١١٨]، ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الأنعام: ٣٧]، ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ [الأنعام: ١٠٩]، ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [يونس: ٢٠].

* * * * *

(١) انظر: فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١٩/ ٩٣).

المبحث الأول

الأدلة على صدق الرسول ﷺ

وفيه ستة مطالب:

المطلب الأول

المسائل المتعلقة بأخلاقه

- كمال أخلاقه ﷺ
- صدقه ﷺ
- عدم استغلال فرص التعالي
- انتفاء الغرض الشخصي
- عبادته ﷺ في السر

كمال أخلاقه ﷺ

من الأدلة الواضحة على صدق النبي ﷺ وصحة نبوته أخلاقه الفاضلة، وآدابه الكاملة، وسجاياه الرشيدة، وفطرته الحميدة:

قال ﷻ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وقال ﷻ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وقال ﷻ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ومن ذلك أيضًا قوله ﷻ: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ ۚ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٦١].

وجاء عن سعيد بن هشام بن عامرٍ أنه أتى ابنَ عباس رضي الله عنهما فسأله عن وتر رسول اللَّه ﷺ، فقال ابن عباس: ألا أدلك على أعلم أهل الأرض بوتر رسول اللَّه ﷺ؟ قال: من؟ قال: عائشة فأتها فاسألها، ثم ائتني فأخبرني بردها عليك، فانطلقت إليها فقلت: يا أم المؤمنين أنبئيني عن خلق رسول اللَّه ﷺ. قالت: ألست تقرأ القرآن؟ قلت: بلى، قالت: فإنَّ خلقَ نبي اللَّه ﷺ كان القرآن. قال: فهممت أن أقوم ولا أسأل أحدًا عن شيء حتى أموت، ثم بدا لي فقلت: أنبئيني عن قيام رسول اللَّه ﷺ... الحديث[1].

---

(١) أخرجه مسلم مطولًا: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض، رقم (٧٤٦).

وقال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كان رسولُ اللَّه ﷺ أحسنَ الناس خُلُقًا...[١].

وقد ألفت في أخلاق النبي ﷺ، وشمائله العطرة، وصفاته الزكية، وعاداته الحميدة مؤلفات كثيرة، من أشهرها، كتاب شمائل النبي ﷺ للترمذي، ولأبي بكر المقري، ولأبي العباس المستغفري، وكتاب الأنوار في شمائل المختار للبغوي[٢]، وغيرها كثير.

وإليك نتف يسيره من أخلاقه العظرة:

ففي تواضعه:

عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رجلاً قال: يا محمد يا سيدنا وابن سيدنا وخيرنا وابن خيرنا فقال رسول اللَّه ﷺ: «يا أيها الناس عليكم بتقواكم ولا يستهوينكم الشيطان أنا محمد بن عبد اللَّه، عبد اللَّه ورسوله، واللَّه ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني اللَّه عز وجل»[٣].

وفي حيائه:

عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان النبي ﷺ اشد حياءً من العذراء في خدرها فإذا رأى شيئًا يكرهه عرفناه في وجهه[٤].

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: سألت امرأة النبي ﷺ كيف تغتسل من حيضتها

---

(١) متفق عليه (البخاري: كتاب الأدب، رقم (٥٧٧٨)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب: كان رسول اللَّه ﷺ أحسن الناس خلقاً، رقم (٢٣١٠)).

(٢) انظر: الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المشرفة، للكتاني (ص٨٨).

(٣) أخرجه الإمام أحمد (١٢١٤١)، بإسناد صحيح.

(٤) متفق عليه (البخاري: كتاب الأدب، باب: من يواجه الناس بالعتب، رقم (٥٧٥١)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب: كثرة حيائه ﷺ، رقم (٢٣٢٠)).

قال: فذكرت أنه أمرها تغتسل ثم تأخذ فرصة من مسكٍ فتطهر بها، قالت: كيف أتطهر بها؟ قال: تطهري بها سبحان اللَّه واستتر - وأشار لنا سفيان بن عيينة بيده على وجهه -، وفي رواية: ثم أنه استحيا فأعرض بوجهه - قال: قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: واجتذبتها إليَّ وعرفت ما أراد النبي ﷺ فقلت: تتبعي بها أثر الدم[1].

وفي حلمه:

عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنت أمشي مع النبي وعليه بردٌ نجرانيٌّ غليظُ الحاشية فأدركه أعرابيٌّ فجذبه جذبةً شديدةً حتى نظرت إلى صفحة عانق النبي ﷺ قد أثرت به حاشية الرداء من شدة جذبته ثم قال: مُر لي من مال اللَّه الذي عندك، فالتفت إليه فضحك ثم أمر له بعطاء[2].

وفي كرمه:

عن ابن المنكدر قال: سمعت جابرًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: ما سُئل النبي ﷺ عن شيء قط فقال لا[3].

شهد صفوان بن أمية حنينًا مع النبي ﷺ وهو كافر ثم رجع إلى الجعرانة فبينما رسول اللَّه ﷺ يسير في الغنائم ينظر إليها ومعه صفوان، وصفوان ينظر إلى شعب ملآن نعمًا وشاءً ورعاء، فأدام النظر إليه، ورسول اللَّه ﷺ يرمقه

---

(١) متفق عليه، واللفظ لمسلم (البخاري: كتاب الحيض، رقم (٣٠٩)، ومسلم: كتاب الحيض، باب: استحباب استعمال المغتسلة من الحيض فرصة ممسكة، رقم (٣٣٢)).

(٢) متفق عليه (البخاري: كتاب فرض الخمس، باب: ما كان النبي ﷺ يعطي، رقم (٢٩٨٠)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب: إعطاء من سأل بفحش وغلظة، رقم (١٠٥٧)).

(٣) متفق عليه (البخاري: كتاب الأدب، باب: حسن الخلق، رقم (٥٦٨٧)، ومسلم: كتاب الفضائل، رقم (٢٣١١)).

فقال: «يا أبا وهب يعجبك هذا الشعب؟» قال: نعم، قال: «هو لك بما فيه» فقبض صفوان ما في الشعب، وقال عند ذلك: ما طابت نفس أحد بمثل هذا إلا نفس نبي، أشهد أن لا إله إلا اللَّه، وأن محمدًا عبده ورسوله[(١)].

وفي رحمته:

وأما رحمته ﷺ فهي تستحق أن تفرد بباب كامل، فإن اللَّه ﷻ قال عنه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وفي الحديث الذي انفرد به الإمام مسلم عن أصحاب الكتب التسعة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل: يا رسول اللَّه ﷺ! ادعُ على المشركين قال: «إني لم أبعث لعَّانًا وإنَّما بعث رحمة»[(٢)]. وهناك رحمته بأمته ورحمته بالمخالف والموافق والصغار والكبار، بل والحيوانات والحشرات وحتى الجمادات كما في حديث الجذع السابق.

عن عبد الرحمن بن عبد اللَّه عن أبيه رضي الله عنهما قال: كنا مع رسول اللَّه ﷺ في سفر فانطلق لحاجته فرأينا حُمَّرةً معها فرخان، فأخذنا فرخيها فجاءت الحمرة فجعلت تفرش فوق رؤوسنا فجاء النبي ﷺ فقال: «من فجع هذه بولدها ردوا ولدها إليها»، ورأى قرية نملٍ قد حرقناها فقال: من حرَّق هذه؟ قلنا: نحن، قال: «إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار»[(٣)].

---

(١) ذكره السيوطي في الخصائص الكبرى (ص٤٥٣) وذكر أنه أخرجه ابن سعد، وأخرجه الواقدي في مغازيه (ص٨٥٠)، وفي اسد الغابة (٢/ ٢٠)، ومختصر تاريخ دمشق (٤/ ٦).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب: النهي عن لعن الدواب وغيرها، رقم (٢٥٩٩).

(٣) أخرجه الإمام أحمد، رقم (٣٨٢٥)، أبو داود كتاب الأدب، باب: قتل الذر، رقم (٥٢٦٨)، صححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١/ ٣٣).

وفي طيب معاشرته:

قال أنس رضي الله عنه : والله لقد خدمته ﷺ تسع سنين ما علمته قال لشيء صنعته لم فعلت كذا وكذا، أو لشيء تركته هلا فعلت كذا وكذا[١].

وهذه الأخلاق العظيمة شهد له فيها أعداؤه من كفار قريش وغيرهم، وكان متحليًا بها قبل الإسلام وبعده؛ (فإذا أنت صعدت بنظرك إلى سيرته العامة، لقيت من جوانبها مجموعة رائعة من الأخلاق العظيمة، حسبك الآن منها أمثلة يسيرة، إذا ما تأملتها صَوَّرتْ لك إنسانًا من الطهر ملءَ ثيابه، والجد حشو إهابه، يأبى لسانه أن يخوض فيما لا يعلمه، وتأبى عيناه أن تخفيا خلاف ما يعلنه، ويأبى سمعه أن يصغى إلى غلو المادحين له: تواضعٌ هو حلية العظماء، وصراحة نادرة في الزعماء، وتثبُّت قلما تجده عند العلماء، فأنَّى من مثله الختل[٢] أو التزوير، أو الغرور أو التغرير؟ حاشا للَّه!

أما هذه الأمثلة اليسيرة التي تتصل بالجانب الخُلقي منه ﷺ رأينا الاكتفاء بها في الدلالة على صدق نبوته، فنجملها فيما يلي:

١- يتبرأ من علم الغيب:

جلست جويريات يضربن بالدف في صبيحة عرس الربيع بنت معوذ الأنصارية، وجعلن يذكرن آباءَهُنَّ من شهداء بدر حتى قالت جارية منهن: وفينا نبي يعلم ما في غد. فقال: «لا تقولي هكذا، وقولي ما كنت

---

(١) متفق عليه (البخاري: كتاب الأدب، رقم (٥٧٧٨)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقاً، رقم (٢٣١٠)).

(٢) الختل: الخداع عن غفلة، الوسيط ٢٢٥/١٠ (خ ت ل).

تقولين» أخرجه البخاري[(١)].

ومصداقه في كتاب اللَّه ﷻ: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ [الأنعام: ٥٠]، ﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

٢- لا يُظهر خلاف ما يبطن:

كان عبد اللَّه بن أبي السراح أحد النفر الذين استثناهم النبي ﷺ من الأمان يوم الفتح؛ لفرط إيذائهم للمسلمين وصدهم عن الإسلام، فلما جاء إلى النبي ﷺ لم يبايعه إلا بعد أن شفع له عثمان رضي الله عنه ثلاثًا. ثم أقبل على أصحابه فقال: «أما كان فيكم رجل رشيد، يقوم إلى هذا حين كففت يدي عن بيعته فيقتله؟» فقالوا: ما ندري ما في نفسك، ألا أو مأت إلينا بعينك! فقال ﷺ: «إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنه الأعين» أخرجه أبو داود والنسائي[(٢)].

٣- خوفه من التقوّل على اللَّه ﷻ:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: دُعِي رسول اللَّه ﷺ إلى جنازة صبيٍّ مِنَ الأنصار، فقلت: يا رسول اللَّه! طوبَى لهذا، عصفورٌ من عصافير الجنة، لم يعمل السوء ولم يدركه، فقال: «أو غير ذلك يا عائشة، إن اللَّه خلق للجنة أهلاً، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم، وخلق للنار أهلاً، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم» أخرجه مسلم[(٣)].

---

(١) البخاري: كتاب المغازي، باب: شهود الملائكة بدراً، رقم (٣٧٧٩).

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الجهاد، باب: قتل الأسير ولا يعرض عليه الإسلام، رقم (٢٦٨٣)، والنسائي: كتاب تحريم الدم، باب: الحكم في المرتد، رقم (٤٠٦٧)، وإسناده حسن.

(٣) أخرجه مسلم، كتاب القدر، باب: معنى كل مولود يولد على فطرة، (رقم (٢٦٦٢).

وقال البخاري: باب: ما كان النبي ﷺ يسأل مما لم ينزل عليه فيه الوحي، فيقول: لا أدري أو لم يجب، حتى ينزل عليه الوحي ولم يقل برأي ولا بقياس لقوله ﷺ: ﴿بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥]، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: سئل النبي ﷺ عن الروح فسكت حتى نزلت الآية[١].

(قوله: باب ما كان النبي ﷺ يسأل مما لم ينزل عليه الوحي، فيقول: لا أدري، أو لم يجب حتى ينزل عليه الوحي، أي: كان له إذا سُئل عن الشيء الذي لم يوح إليه فيه حالان: إما أن يقول: لا أدري، وإما أن يسكت حتى يأتيه بيان ذلك بالوحي، والمراد بالوحي أعم من المتعبد بتلاوته ومن غيره، وقد وردت فيه عدَّة أحاديث منها حديث ابن عمر رضي الله عنهما جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: أي البقاع خير؟ قال: «لا أدري»، فأتاه جبريل فسأله فقال: «لا أدري»، فقال: «سل ربك» فانتفض جبريل انتفاضة، الحديث أخرجه ابن حبان، وللحاكم نحوه من حديث جبير ابن مطعم، وفي الباب عن أنس عن ابن مردويه، وحديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «ما أدري الحدود كفارةٌ لأهلها أم لا»، هو عند الدارقطني والحاكم)[٢].

٤- لا يدري ماذا سيكون حظه عند اللَّه:

ولما توفي عثمان بن مظعون رضي الله عنه قالت أم العلاء - امرأة من الأنصار -: رحمة اللَّه عليك أبا السائب، فشهادتي عليك لقد أكرمك اللَّه، فقال ﷺ: «وما يدريك أن اللَّه أكرمه؟» فقالت: بأبي أنت يا رسول اللَّه، فمن يكرمه

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب: ما كان النبي ﷺ يسأل مما لم ينزل عليه الوحي. . .، والحديث الذي في الباب رقمه (٧٣٠٩).

(٢) فتح الباري، لابن حجر (١٣/ ٣٠٣).

اللَّه؟ قال: أما هو فقد جاءه اليقين، واللَّه إني لأرجو له الخير، واللَّه ما أدري وأنا رسول اللَّه ما يُفعل بي»، قالت: فواللَّه لا أزكي أحدًا بعده أبدًا، أخرجه البخاري[١]، ومصداقه في كتاب اللَّه تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ [الأحقاف: ٩].

أتراه لو كان حين يتحامى الكذب يتحاماه دهاءً وسياسةً، خشية أن يكشف الغيب قريبًا أو بعيدًا عن خلاف ما يقول، ما الذي كان يمنعه أن يتقول ما يشاء في شأن ما بعد الموت، وهو لا يخشى من يراجعه فيه، ولا يهاب حكم التاريخ عليه؟ بل منعه الخلق العظيم، وتقدير المسؤولية الكبرى أمام حاكم آخر أعلى من التاريخ وأهله ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦- ٧][٢].

* * * * *

---

(١) في كتاب الجنائز، باب: الدخول على الميت بعد الموت إذا أدرج في الأكفان، رقم (١١٨٦).

(٢) النبأ العظيم، (ص٣٤ - ٣٦)، وقد زدت فيه بعض الزيادات.

صدقه ﷺ

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] ورهطك منهم المخلصين خرج رسول اللَّه ﷺ حتى صعد الصفا فهتف: «يا صباحاه»، فقالوا: من هذا؟ فقالوا: محمد، فاجتمعوا إليه، فقال: «يا بني فلان يا بني فلان يا بني فلان يا بني عبد مناف يا بني عبد المطلب» فاجتمعوا إليه، فقال: «أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقيَّ؟» قالوا: ما جربنا عليك كذبًا، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»، قال أبو لهب: تبًا لك ما جمعتنا إلا لهذا؟! ثم قام فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١][(١)].

فانظر إلى قولهم: «ما جربنا عليك كذبًا»، يعني: ولا حتى مرة واحدة، قيلت هذه الكلمة أمام هذه الجموع، ولم ينكرها أحد، مع أنه عاشرهم أربعين سنة قبل أن يبعث، ومع هذا ما جربوا عليه كذبًا قط.

بل حتى من لم يعرفه كان إذا رآه علم أنه صادق:

عن عبد اللَّه بن سلام رضي الله عنه قال: لما قدم رسول اللَّه ﷺ المدينة، انجفل الناس إليه، وقيل: قدم رسول اللَّه ﷺ، فجئت في الناس لأنظر إليه فلما تبينت وجه رسول اللَّه ﷺ عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، وكان أول شيء تكلم به أن قال: «أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام،

---

(١) متفق عليه (البخاري: تفسير القرآن، باب: تباب خسران وتتبيب تدمير، رقم (٤٦٨٧)، ومسلم: الإيمان، باب: قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، رقم (٢٠٨)).

وصلوا والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام»[١].

يقول ابن رواحة رضي الله عنه:

لو لم تكن فيه آياتٌ مبينةٌ ... كانت بداهته تنبيك بالخبر[٢]

ومن سمع كلامه علم صدقه، فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن ضمادًا قدم مكة، وكان من أزد شنوءة، وكان يرقي من هذه الريح، فسمع سفهاء من أهل مكة يقولون: إن محمدًا مجنونٌ، فقال: لو أني رأيت هذا الرجل لعل اللَّه يشفيه على يدي، قال: فلقيه، فقال: يا محمد إني أرقي من هذه الريح، وإن اللَّه يشفي علي يدي من شاء، فهل لك؟ فقال رسول اللَّه ﷺ: «إن الحمد للَّه نحمده ونستعينه، من يهده اللَّه فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله، أما بعد»، قال: فقال: أعد علي كلماتك هؤلاء. فأعادهن عليه رسول اللَّه ﷺ ثلاث مرات قال: فقال: لقد سمعت قول الكهنة، وقول السحرة، وقول الشعراء، فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء، ولقد بلغن ناعوس[٣] البحر. قال: فقال: هات يدك أبايعك على الإسلام. قال: فبايعه فقال رسول اللَّه ﷺ: «وعلى قومك؟» قال: وعلى قومي. قال:

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢٣٢٧٢)، والترمذي: كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، رقم (٢٤٨٥)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: ما جاء في قيام الليل، رقم (١٣٣٤)، والدارمي: كتاب الصلاة، باب: فضل صلاة الليل، رقم (١٤٦٠)، وإسناده صحيح، صححه الترمذي والألباني في صحيح الترمذي (٢/ ٣٠٣)، وعبد القادر الأرناؤوط في جامع الأصول (٩/ ٥٥١)، وغيرهم.

(٢) انظر: ديوان عبد اللَّه بن رواحة (ص٩٥)، جمع ودراسة وتحقيق: د. حسن محمد باجودة، القاهرة، مكتبة التراث، ١٩٧٢م.

(٣) أي: عمق البحر.

فبعث رسول اللَّه ﷺ سرية فمروا بقومه، فقال صاحب السرية للجيش: هل أصبتم من هؤلاء شيئًا، فقال رجل من القوم: أصبت منهم مطهرة، فقال: ردوها، فإن هؤلاء قوم ضمادٍ[(١)].

إذن: من عاشره شهد بصدقه، ومن رآه من أول وهلة شهد بصدقه، ومن سمع كلامه شهد بصدقه، ومن سمع عنه ولم يره - كحال هرقل - شهد بصدقه، وعدوه - كأبي سفيان - شهد بصدقه، فهل بعد هذا مطعن فيه؟

ومن المعلوم ضرورة أنه لا يمكن لرجل كاذب، مداوم على الكذب، ويدعي كل يوم أنه يأتيه وحي جديد من اللَّه تعالى، ومع هذا لم يسطتع أحد أن يلاحظ ذلك عليه ويعرف حقيقته! فمن كان في قلبه خلاف ما يبطن لا بد أن يزل، وأن تعرف حقيقته بفلتات لسانه ولحن قوله، كما قال ﷻ عن المنافقين: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٠].

وقد روي عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه قال: «ما أسرَ أحد سريرة إلا أبداها على صفحات وجهه وفلتات لسانه»[(٢)].

«واعلم أنك مهما أزحت عن نفسك راحة اليقين، وأرخيت لها عنان الشك، وتركتها تفترض أسوأ الفروض في الواقعة الواحدة، والحادثة الفذة من هذه السيرة المكرمة، فإنك متى وقفت منها على مجموعة صالحة، لا تملك أن تدفع هذا اليقين عن نفسك، إلا بعد أن تتهم

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الجمعة، باب: تخفيف الصلاة والخطبة، رقم (٨٦٨).

(٢) ذكره ابن تيمية في الجواب الصحيح (٦/ ٤٨٧)، ولم يذكر من خرجه، وكذا ذكره ابن مفلح في الفروع (١/ ١٥٣) ولم يعزه لمصدر، ولم أجده بعد طول عناء في البحث في مظانه، ولكن المعنى صحيح على كل حال.

وجدانك وتشك في سلامة عقلك، فنحن قد نرى الناس يدرسون حياة الشعراء في أشعارهم، فيأخذون عن الشاعر من كلامه صورة كاملة؛ تتمثل فيها عقائده، وعوائده، وأخلاقه، ومجرى تفكيره، وأسلوب معيشته، ولا يمنعهم زخرف الشعر وطلاؤه عن استنباط خيلته[١]، وكشف رغوته عن صريحه[٢]، ذلك أن للحقيقة قوة غلابة تنفذ من حُجب الكتمان، فتقرأ بين السطور وتعرف في لحن القول، والإنسان مهما أمعن في تصنعه ومداهنته لا يخلو من فلتات في قوله وفعله، تنم على طبعه إذا أُحفِظ أو أُحرج، أو احتاج أو ظفر، أو خلا بمن يطمئن إليه.

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تُعْلمِ

فما ظنك بهذه الحياة النبوية، التي تعطيك في كل حلقة من حلقاتها مرآة صافية لنفس صاحبها، فتريك باطنه من ظاهره، وتريك الصدق والإخلاص مائلاً في كل قول من أقواله وكل فعل من أفعاله، بل كان الناظر إليه إذا قويت فطنته وحسنت فراسته، يرى أخلاقه العالية تلوح في محياه ولو لم يتكلم أو يعمل، ومن هنا كان كثير ممن شرح الله صدورهم للإسلام لا يسألون رسول الله ﷺ على ما قال برهانًا؛ فمنهم العشير[٣] الذي عرفه بعظمة سيرته، ومنهم الغريب الذي عرفه بسيماه في وجهه»[٤] كما حصل لعبد الله بن سلام رضي الله عنه.

---

(١) استنباط خيلته: الخيلة في اللغة هي الكبر، ولكن اشتقاقات فعل خال يخيل تظهر معاني الخفاء والاستشكال والتلون، فهنا قد تعني كلمة (استنباط خيلته): فهم وإظهار ما يراد إخفاؤه.

(٢) كشف رغوته عن صريحه: الرغوة هي ما يكون فوق اللبن عند صبه في الإناء [أي: الفقاقيع]، والصريح هو اللبن الخالص، وهذا التعبير يعني إجمالًا: كشف الزيف عن الحقيقة.

(٣) العشير: الزوج أو المعاشر أو الصديق القريب، ومن هؤلاء أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

(٤) النبأ العظيم (ص٣٨).

ثم إن الكاذب لو استطاع أن يكذب على كل الناس؛ فإنه لن يكذب على نفسه ويصدِّق كذبه.

ومن هذه الأمثلة على هذه الحقيقة قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧].

عن عائشة ﵂ قالت: كان النبي ﷺ يُحْرَسُ حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧]، فأخرج رسول اللَّه ﷺ رأسه من القبة، فقال لهم: «يا أيها الناس انصرفوا فقد عصمني اللَّه»[١]، فهل هذا فعل كاذب، كيف لكاذب أن يطرد الذين يحرسونه بزعم أن اللَّه سيعصمه، وهو يعلم في قرارة ذاته كذب نفسه، والعرب قد رمته عن قوس واحدة تتربص له في كل طريق، ألا يخاف أن يغتال؟!

إن هذا الأمر لا يفعله إلا رجل صادق، يأوي إلى ركن شديد، واثق من أن الذي أرسله سيحميه من كل المخاطر.

ومن هذا الباب حديث جابر بن عبد اللَّه ﵄ قال: غزونا مع رسول اللَّه ﷺ غزةً قبل نجدٍ، فأدركنا رسول اللَّه ﷺ في وادٍ كثير العِضَاهِ[٢]، فنزل رسول اللَّه ﷺ تحت شجرةٍ فعلق سيفة بغصنٍ من أغصانها. قال: وتفرق الناس في الوادي يستظلون بالشجر، فجاء رجل من المشركين وسيف رسول اللَّه ﷺ معلق بشجرةٍ، فأخذ سيف نبي اللَّه ﷺ فاخْتَرَطَهُ[٣]، فقال

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب: من سورة المائدة، رقم (٣٠٤٦)، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي، رقم (٢٤٤٠).

(٢) العِضَاهُ: كل شجرة له شوك صغُر أو كبُر، واحدته: عِضَاهَةٌ، المعجم الوسيط (ع ض و).

(٣) اخترط السيف: استَلّه. القاموس المحيط (خ ر ط).

لرسول اللَّه ﷺ: أتخافني؟ قال: «لا». قال: فمن يمنعك مني؟ قال: «اللَّه يمنعني منك»، وبينا نحن كذلك إذ دعانا رسول اللَّه فجئنا، فإذا أعرابيٌّ قاعدٌ بين يديه فقال: «إنَّ هذا أتاني وأنا نائمٌ فاخترط سيفي، فاستيقظت وهو قائم على رأسي مخترط صَلْتًا[١]، قال: من يمنعك مني؟ قلت: «اللَّه، فشامه - يعني: أدخله في غمده - ثم قعد فهو هذا»، قال: ولم يعاقبه رسول اللَّه ﷺ[٢].

«ومن أعظم الوقائع تصديقًا لهذا النبأ الحق، ذلك الموقف المدهش الذي وقفه النبي ﷺ في غزوة حنين، منفردًا بين الأعداء، وقد انكشف المسلمون وولوا مدبرين، فطفق هو يركض بغلته إلى جهة العدو، والعباس بن عبد المطلب رضي الله عنه آخذ بلجامها يكفها إرادة ألا تسرع، فأقبل المشركون إلى رسول اللَّه ﷺ، فلما غشوه لم يفر ولم ينكص، بل نزل عن بغلته كأنما يمكنهم من نفسه، وجعل يقول: «أنا النبي لا كذب... أنا ابن عبد المطلب»[٣]، كأنما يتحداهم ويدلهم على مكانه، فواللَّه ما نالوا منه نيلاً، بل أيَّده اللَّه بجنده، وكفَّ عنه أيديهم بيده»[٤].

* * * * *

---

(١) سيفٌ صَلْت: صقيلٌ ماضٍ، والصَّلْت: البارز. المعجم الوسيط (ص ل ت).

(٢) متفق عليه (البخاري: كتاب المغازي، باب: غزوة بني المصطلق، رقم (٣٩٠٨)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: صلاة الخوف، رقم (٨٤٣)).

(٣) متفق عليه (البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب: من قال خذها وأنا ابن فلان، رقم (٢٨٧٧)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب: في غزوة حنين، رقم (١٧٧٦)).

(٤) النبأ العظيم (ص: ٤٩).

عدم استغلاله فرص التعالي

في بعض المواقف تحصل للنبي ﷺ فرصة عظيمة للتعالى والتكبر والفخر، ولكنه يأبى أن يفعل ذلك، ولو كان كاذبًا لاستغلها أعظم استغلال:

يقول إميل درمنغم[١]: «ولد لمحمد ابنه إبراهيم فمات طفلًا، فحزن عليه كثيرًا ولحده بيده، ووافق موتُه كسوف الشمس، فقال المسلمون: إنها انكسفت لموت إبراهيم، ولكن محمدًا كان من سمو النفس ما رأى به رد ذلك، فقال: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات اللَّه، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته...»[٢]؛ فقول مثل هذا لا يصدر عن كاذب دجال...»[٣].

وهذا كلام حق، فلو كان غير النبي ﷺ من مدعي النبوة، لاهتبل هذه الفرصة وقال: انظروا إلى الشمس حزنت لحزني وانكسفت.

وهذا الشاعر النصراني إلياس قنصل يدله إمعان النظر في هذه الحادثة وغيرها أن محمدًا ﷺ نبي مخلص صادق ورع يترفع عن استغلال الفرص المواتية لإقامة صرح أمجاد شخصية، فيعلن إيمانه به نبيًا وبرسالته دينًا إلهيًا قويمًا، أنشد إلياس قنصل:

---

(١) مستشرق فرنسي، عمل مديراً لمكتبة الجزائر، من آثاره: (حياة محمد) طبع في بارس عام (١٩٢٩)، و(محمد والسنة الإسلامية) ألفه في باريس (١٩٥٥)، انظر: قالوا عن الإسلام (ص٦٠).

(٢) متفق عليه (البخاري: كتاب الجمعة، باب: الدعاء في الخسوف، رقم (١٠١٢)، ومسلم، كتاب الكسوف، باب: صلاة الكسوف، رقم (٩٠١)).

(٣) حياة محمد له (ص٣١٨)، نقله عنه كتاب «قالوا عن الإسلام» (ص٦٠).

إني ذكرتك يا نبي ملوعًا بشدائد الآلام والأحزان
تحنو على إبراهيم يلفظ روحه وشبابه ما زال في الريعان
فنفيت ما نسب الصحابة للسما وعلى جفونك مدمع الثكلان
هي فرصة لو نالها متنبئ أغنته عن عمل وعن برهان
إن لم يكن فيما أتيت رسالة للحق كان الحق في بطلان[١]

ومن هذا الباب حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان أهل بيت من الأنصار لهم جملٌ يَسْنُونَ[٢] عليه، وإن الجمل استُصْعِبَ عليهم فمنعهم ظهره، وإن الأنصار جاءوا إلى رسول اللَّه ﷺ، فقالوا: إنه كان لنا جملٌ نسني عليه وإنه استصعب علينا ومنعنا ظهره، وقد عطش الزرع والنخل. فقال رسول اللَّه ﷺ لأصحابه: «قوموا»، فقاموا فدخل الحائط والجملُ في ناحيةٍ، فمشى النبي ﷺ نحوه، فقالت الأنصار: يا نبي اللَّه إنه قد صار مثل الكلب الكَلِبِ[٣] وإنا نخاف عليك صولته، فقال: «ليس عليَّ منه بأسٌ[٤]»، فلما نظر الجمل إلى رسول اللَّه ﷺ أقبل نحوه حتى خرَّ ساجدًا بين يديه، فأخذ رسول اللَّه ﷺ بناصيته أذلَّ ما كانت قط حتى أدخله في العمل، فقال له أصحابه: يا رسول اللَّه هذه بهيمة لا تعقل تسجد لك! ونحن نعقل، فنحن أحق أن نسجد لك. فقال: «لا يصلح

---

(١) نبوة محمد ﷺ في القرآن، د. حسن ضياء الدين عتر (ص٢٦٤)، دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م.

(٢) يسنون عليه: أي: يستقون عليه، لسان العرب (س ن ي)، وسني الدابة: استقي عليها الماء، المعجم الوسيط (س ن ي).

(٣) أي: المسعور، يقال: كَلِبَ الكَلِبَ يَكْلَبُ كَلَباً: أصابه داءُ الكَلِبَ. انظر: الوسيط (ك ل ب)، ولسان العرب (١/ ٧٢٢).

(٤) فالذي عصمه من كل أذى الناس ألا يقدر أن يعصمه من الحيوان؟

لبشر أن يسد لبشر، ولو صلح لبشر أن يسجد لبشر، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها، والذي نفسي بيده لو كان من قدمه إلى مفرق رأسه قرحةً تنبجس بالقيح والصديد، ثم استقبلته فلحسته ما أدت حقه»[١].

فلم يستغل النبي ﷺ سجود الجمل له ليعظم نفسه أو يرفعها، بل قال: «لا يصلح لبشر أن يسجد لبشر».

* * * * *

(١) أخرجه الإمام أحمد (١٢٢٠٣) وإسناده حسن، صححه الألباني في صحيح الترغيب، رقم (١٩٣٦) وقد تقدم في ذكر آيات النبي ﷺ.

انتفاء الغرض الشخصي

من أدلة صدق النبي ﷺ عدم إرادة المصلحة الشخصية لنفسه من هذه الدعوة، وقد نبَّه اللَّه تعالى إلى هذا الدليل بقوله: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦].

وهذا على خلاف أصحاب المذاهب المنحرفة والأفكار الباطلة والدجالين والكذابين؛ فإنهم يسعون لتحقيق مصالح شخصية ومآرب ذاتية من جاه أو مال أو نساء أو أتباع أو منصب أو شهرة أو غير ذلك، بينما لا تجد هذا في النبي ﷺ وإخوانه من الرسل والأنبياء، فهو أزهد الناس في الدنيا؛ فقد كانت تمر ثلاثة أهلة ولا يوقد في بيت رسول اللَّه ﷺ نار، وإنما كان طعامه التمر والماء[١]، وتأتي الفقيرة إلى بيت رسول اللَّه، فلا تجد عائشة رضي الله عنها إلا تمرة واحدة فتعطيها إياها[٢]، وأحيانًا يتي الضيف فيرسل النبي ﷺ إلى بيوته التسعة، فلا يجد فيها شيئًا حتى التمرة، ليس في بيوته التسعة إلا الماء[٣].

ولقد خيره ربه بين أن يكون عبدًا رسولاً أو ملكًا رسولاً، فاختار أن يكون عبدًا رسولاً، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جلس جبريل إلى النبي ﷺ فنظر إلى

---

(١) متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها: (البخاري: كتاب الهبة، باب: الحديث، رقم (٢٥٦٧)، ومسلم: كتاب الزهد والرقائق، رقم (٢٩٧٢)).

(٢) متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها: البخاري، كتاب الزكاة، باب: اتقوا النار ولو بشق تمرة، رقم (١٤١٨)، ومسلم، كتاب البر والصلة، باب: فضل الإحسان إلى البنات، رقم (٢٦٢٩).

(٣) متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه: (البخاري: كتاب المناقب، باب: قول اللَّه: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الحشر: ٩]، رقم (٣٧٩٨)، ومسلم: كتاب الأشربة، باب: إكرام الضيف وفضل إيثاره، رقم (٢٠٥٤)).

السماء، فإذا ملك ينزل فقال جبريل: إن هذا الملك ما نزل منذ يوم خلق قبل الساعة، فلما نزل قال: يا محمد أرسلني إليك ربك، قال: أفملكًا نبيًا يجعلك أو عبدًا رسولاً؟ قال جبريل: تواضع لربك يا محمد، قال: «بل عبدًا رسولاً»[١].

وكان أزهد الناس في الدنيا وزخرفها، عن عمر بن الخطاب ﷺ رأيت النبي ﷺ وإنه لعلى حصيرٍ ما بينه وبينه شيءٌ، وتحت رأسه وسادةٌ من أَدَم[٢] حشوها ليفٌ، وإن عند رجليه قَرَظًا[٣] مصبوبًا، وعند رأسه أَهَبٌ[٤] معلَّقةٌ، فرأيت أثر الحصير في جنبه، فبكيت، فقال: «ما يبكيك؟»، فقلت: يا رسول اللَّه! إن كسرى وقيصر فيما هما فيه وأنت رسول اللَّه. فقال: «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة»[٥].

وعن عبد اللَّه بن مسعود ﷺ قال: اضطجع النبي ﷺ على حصيرٍ فأثر في جلده، فقلت: بأبي وأمي يا رسول اللَّه! لو كنت آذنتنا ففرشنا لك عليه شيئًا يقيك منه، فقال رسول اللَّه ﷺ: «ما لي وللدنيا إنما أنا والدنيا كراكبٍ استظل تحت شجرة ثم راح وتركها»[٦].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٧١٢٠)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣/ ٣)، رقم (١٠٠٢).

(٢) الأدم: الجلد. مختار الصحاح (١/ ٤).

(٣) القرظ: ورق شجر يُدبغ به. لسان العرب (٧/ ٤٥٤).

(٤) أَهَب: جمع إهاب وهو الجلد ما لم يدبغ. لسان العرب (١/ ٢١٧).

(٥) متفق عليه (البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب: قوله: ﴿تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾ [التحريم: ١]، رقم (٤٩١٣)، ومسلم: كتاب الطلاق، باب: في الإيلاء واعتزال النساء، رقم (١٤٧٩)).

(٦) أخرجه الترمذي: كتاب الزهد، باب ما جاء في أخذ المال بحقه، رقم (٢٣٧٧)، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب: مثل الدنيا، رقم (٤١٠٩)، وإسناده صحيح؛ انظر: صحيح سنن ابن ماجه للألباني (٢/ ٣٩٤)، رقم (٣٣١٧).

وكان لا يحب أن يرفعه الناس فوق قدره:

عن ابن عباس أنه سمع عمر رضي الله عنه يقول على المنبر: سمعت النبي ﷺ يقول: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبده فقولوا عبد اللَّه ورسوله»(١).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنهما أن رجلاً قال: يا سيدنا وابن سيدنا ويا خيرنا وابن خيرنا، فقال رسول اللَّه ﷺ: «يا أيها الناس عليكم بتقواكم، ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد بن عبد اللَّه، عبد اللَّه ورسوله، واللَّه ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني اللَّه عز وجل»(٢).

وعن عبد اللَّه بن الشخير العامري رضي الله عنه انطلقت في وفد بني عامر إلى رسول اللَّه ﷺ، فقلنا: أنت سيدنا. فقال: «السيد اللَّه تبارك وتعالى»، قلنا: وأفضلنا فضلاً وأعظمنا طولاً، فقال: «قولوا بقولكم أو بعض قولكم، ولا يستجرينكم الشيطان»(٣).

وكان لا يحب أن يقوم له أحد إذا دخل:

وعن أنسٍ رضي الله عنه قال: ما كان شخص أحب إليهم من رسول اللَّه ﷺ،

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب: قول اللَّه: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ﴾ [مريم: ١٦]، رقم (٣٤٤٥).

(٢) أخرجه الإمام أحمد، رقم (١٢١٤١)، وإسناده صحيح، كما في غاية المرام للألباني (ص٩٧)، رقم (١٢٣)، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٥م.

(٣) أخرجه أبو داود، كتاب الأدب، باب: في كراهية التمادح، رقم (٤٨٠٦)، وأحمد (١٥٨٧٦)، وإسناده صحيح، انظر: غاية المرام في تخريج الحلال والحرام، للألباني (ص٩٩)، رقم (١٢٧)، وصحيح سنن أبي داود (٣/ ٩١٢)، رقم (٤٠٢١).

وكانوا إذا رأوه لم يقوموا، لما يعلموا من كراهيته لذلك[١].

ولا يحب أحدًا أن يقف فوق رأسه كما تفعل الملوك والقياصرة:

فقد أخرج مسلم عن جابر رضي الله عنه قال: اشتكى رسول اللَّه ﷺ فصلَّينا وراءه وهو قاعدٌ وأبو بكر يسمع الناس تكبيره، فالتفت إلينا فرآنا قيامًا، فأشار إلينا فقعدنا فصلَّينا بصلاته قعودًا، فلمَّا سلَّم قال: «إن كدتم آنفًا لتفعلون فعل فارس والروم، يقومون على ملوكهم وهم قعود، فلا تفعلوا؛ ائتموا بأئمتكم إن صلى قائمًا فصلوا قيامًا، وإن صلَّى قاعدًا فصلوا قعودًا»[٢].

وهذا أمر عجيب؛ فقد ذكر الفقهاء أن القيام في صلاة الفريضة من أركان الصلاة[٣]، ومع هذا لما أحسَّ النبي ﷺ أن هذا الأمر سوف يؤدي إلى المبالغة في تعظيمه أمرهم بالقعود.

وعن أبي مسعود رضي الله عنه قال: أتى النبي ﷺ رجلٌ فكلمه فجعل ترعد فرائصه، فقال له: «هون عليك فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأةٍ تأكل القديد[٤]»[٥].

بل كان النبي ﷺ يلزم خاصته وأهله بالزهد أيضًا، فقد خيَّر أمهات

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١١٩٣٦)، والترمذي، كتاب الأدب، باب: ما جاء في كراهية قيام الرجل للرجل، رقم (٢٧٥٤)، وإسناده حصحي، انظر: السلسلة الصحيحة، للألباني (١/ ٦٩٨)، رقم (٣٥٨).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الصلاة، باب: ائتمام المأموم بالإمام، رقم (٤١٣).

(٣) انظر: كتاب الكافي، لابن قدامة المقدسي (١/ ٢٧٩)، تحقيق: د. عبد اللَّه التركي، دار هجر، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.

(٤) القَدِيدُ من اللحم: ما قطع طولًا ومُلِّح وجُفف في الهواء والشمس. المعجم الوسيط: (ق د د).

(٥) أخرجه ابن ماجه: كتاب الأطعمة، باب: القديد، رقم (٣٣١٢)، وهو صحيح كما قال الألباني في صحيح ابن ماجه (٢/ ٢٣٢)، رقم (٢٦٧٧).

المؤمنين رضي اللَّه عنهن ن بين البقاء معه على هذه الحال ولهن الجنة، وبين الدنيا ويطلقهن، فاخترن البقاء معه(١):

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٨ - ٢٩].

وجاءته فاطمة ابنته ﷺ تسأله خادمًا من السبي، فوزعه النبي ﷺ على الناس، ولم يعط فاطمة منها شيئًا، مع شدة حبه لها وشدة حاجتها إليه:

عن علي قال: شكت فاطمة إلى النبي ﷺ ما تلقى في يدها من الرحى، فأُتى بسبي فأتته تسأله، فلم تره فأخبرت بذلك عائشة، فلما جاء النبي ﷺ أخبرته، فأتانا وقد أخذنا مضاجعنا، فذهبنا لنقوم فقال: «على مكانكما»، فجاء فقعد بيننا حتى وجدت برد قدميه على صدري، فقال: ألا أدلكما على خير مما سألتما؟ إذا أخذتما مضاجعكما فسبحا ثلاثًا وثلاثين، واحمدا ثلاثًا وثلاثين، وكبرا أربعًا وثلاثين، فهو خيرٌ لكما من خادم»(٢).

وفي رواية أبي داود قال عليٌ لابن أعبد: ألا أحدثك عني وعن فاطمة بنت رسول اللَّه ﷺ، وكانت أحب أهله إليه، وكانت عندي فجرت بالرحى حتى أثرت بيدها، واستقت بالقربة حتى أثرت في نحرها وقَمّت البيت حتى اغبرت

---

(١) الحديث متفق عليه عن عائشة ﷺ: (البخاري: كتاب التفسير، باب: قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ [الأحزاب: ٨٢]، رقم (٤٧٨٦)، ومسلم: كتاب الطلاق، باب: أن تخيير ارمأته لا يكون طلاقاً. . .، رقم (١٤٧٥)).

(٢) متفق عليه (البخاري: كتاب فرض الخمس، باب: الدليل أن الخمس لنوائبه، رقم (٣١١٣)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب: التسبيح أول النهار وعند النوم، رقم (٢٧٢٧)).

ثيابها، وأوقدت القدر حتى دكنت ثيابها وأصابها من ذلك ضر، فسمعنا أن رقيقًا أُتي بهم إلى النبي ﷺ، فقلت: لو أتيت أباك فسألتيه خادمًا يكفيك، فأتته فوجدت عنده حُدَّاثًا[١] فاستحيت فرجعت، فغدا علينا ونحن في لِفَاعِنَا[٢]، فجلس عند رأسها فأدخلت رأسها في اللِّفاع حياء من أبيها، فقال: «ما كان حاجتك أمس إلى آل محمد؟» فسكتت مرتين، فقلت: أنا واللَّه أحدثك يا رسول اللَّه؛ إن هذه جرت عندي بالرحى حتى أثرت في يدها، واستقت بالقربة حتى أثرت في نحرها، وكسحت البيت حتى اغبرت ثيابها، وأوقدت القدر حتى دكنت ثيابها، وبلغنا أنه قد أتاك رقيق أو خدم، فقلت لها: سليه خادمًا...[٣].

فانظر كيف قسم النبي ﷺ السبي ولم يعط فاطمة رضي الله عنها منه شيئًا!

بل كان يحرم الصدقة عليه وعلى آل بيته، ويقول: «لا يحل لي من هذه الغنائم إلا الخُمس، والخُمس مردود فيكم»[٤].

فالنبي ﷺ قبل النبوة كان له مكانة عظيمة في قومه، ولا ينادونه إلا الأمين والصادق، وإذا اختلفوا في شيء تحاكموا إليه[٥]، وكان متزوجًا من امرأة

---

(١) أي: رجالًا يتحدثون. انظر: عون المعبود في شرح سنن أبي داود، للعظيم أبادي (٨/ ١٤٩)، دار الكتب العلمية، بيروت، الطعبة الأولى، ١٩٩٠م.

(٢) أي: في غطائنا، باللِّفاعُ ما يجلَّل به الجسدُ كلُّ، كِساءً كان أو غيره. الوسيط: (ل ف ع).

(٣) أخرجه أبو داود، كتاب الأدب، باب: في التسبيح عند النوم، رقم (٥٠٦٢).

(٤) أخرجه النسائي، كتاب قسم الفيء، رقم (٤١٣٩).

(٥) كما حصل عندما اختلفت قريش عند بناء الكعبة، فيمن يضع الحجر الأسود في مكانه، فاحتكموا إلى النبي ﷺ، ففضَّ الخصام بأن بسط عباءته ووضع الحجر الأسود عليها، وأمر كل رأس قبيلة أن يأخذ طرفاً من أطراف العباءة، فحملوه كلهم حتى وضعوه في مكانه. انظر: الرحيق المختوم (ص٥٨).

غنية، وله أعرق نسب في قريش، فعنده المال والمرأة الجميلة والمكانة المرموقة والسمعة الطيبة والنسب الشريف، فكيف يترك هذا كله ويحارب الناس أجمعين، ويكفرهم إلا من كان على طريقته، ويقول لقريش: «جئتكم بالذبح»[(١)]. وترميه العرب عن قوس واحدة، ثم بعد هذا كله ليس له من فعله أي مصلحة دنيوية؛ لا له ولا لأبنائه ولا لأهله، بل حتى لما مات لم يُعْطِ الخلافة لأحد من قرابته ولا جعل لهم نصيب من الأرث فقال ﷺ: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة»، فما كان لرجل يترك الكذب أربعين سنة، حتى صار طبعًا له وسجية من سجاياه الثابتة التي يصعب انتزاعها منه، بل حتى لو أراد الكذب لأبت عليه طباعه وسجاياه ذلك، ثم بعد هذا التاريخ الطويل والسمعة السامية يقوم وينتحل الكذب، وليس أي كذب بل أشد أنواعه وهو الكذب على اللَّه تعالى، وهو مع هذا لا يهدف إلى مصلحة ولا إلى غرض شخصي؟ إن هذا لا يمكن أن يتصوره عاقل.

إن عدم رغبة النبي ﷺ في متاع الدنيا دليل أنه إنما فعل هذا طاعة للَّه، بوحي منه ﷻ.

وقد وُفِّق بعض المستشرقين المنصفين لفهم هذا المعنى وإدراكه؛ يقول (كارليل)[(٢)]: «ومما يبطل دعوى القائلين إن محمدًا ﷺ لم يكن صادقًا في رسالته؛ أنه قضى عنفوان شبابه وحرارة صباه في تلك العيشة الهادئة المطمئنة، ولم يحاول أثناءها إحداث ضجة ولا دويٍّ، مما يكون وراءه

(١) أخرجه الإمام أحمد (رقم (٦٩٩٦)، وإسناده صحيح.
(٢) تقدمت ترجمته.

ذكر وشهرة وجاه وسلطان، ولم يك إلا بعد أن ذهب الشباب وأقبل المشيب»[١].

وقد استدل بهذا الدليل حبيب النجار[٢] في سورة يس؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [يس: ٢٠ - ٢١].

وهذا الدليل حق، وكان كل نبي يأتي إلى قومه يقول لهم هذا الأمر، ففي سورة الشعراء قال نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٩، ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠].

* * * * *

(١) الأبطال، لكارليل (ص٥١)، عن كتاب الوحي القرآني في المنظور الاستشراقي ونقده، د. محمود ماضي (ص١٢٧)، مكتبة دار الدعوة، الإسكندرية، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م.

(٢) انظر: تفسير البيضاوي (٤/ ٤٢٩)، وتفسير القرطبي (١٥/ ١٥)، وتفسير ابن كثير (٣/ ٥٦٩) وغيره من كتب التفسير.

عبادته ﷺ في السر

إن الإنسان المخادع والكاذب المدعي للصلاح ويهدف إلى أغراض دنيوية من زعامة أو مال أو غير ذلك؛ قد يدعي الصلاح أمام الناس والأتباع؛ لكن سرعان ما يذهب هذا التصنُّع وتنكشف حقيقته ويذهب زيفه إذا كان وحده أو أمام خاصته.

فإذا أردنا أن نسلط الضوء على حياة النبي ﷺ الخاصة وأعماله في السر وجدنا أمرًا عجيبًا وطاعة متفانية وجهدًا أكبر من الذي يراه الناس، وهذا دليل ظاهر على صدقه ﷺ.

عن حذيفة رضي الله عنه قال: «صليت مع النبي ﷺ ذات ليلةٍ فافتتح البقرة فقلت يركع عند المائة ثم مضى فقلت يصلي بها في ركعة فمضى فقلت يركع بها ثم افتتح النساء فقرأها ثم افتتح آل عمران فقرأها، يقرأ مترسلا إذا مر بآيةٍ فيها تسبيح سبح وإذا مر بسؤال سأل وإذا مر بتعوذ تعوذ ثم ركع فجعل يقول: سبحان ربي العظيم فكان ركوعه نحوًا من قيامه ثم قال سمع اللَّه لمن حده ثم قام طويلاً قريبًا مما ركع ثم سجد فقال: سبحان ربي الأعلى فكان سجوده قريبًا من قيامه»[١].

وقراءة البقرة والنساء وآل عمران بترسل تأخذ وقتًا لا يقل عن ساعتين، وإذا كان ركوعه وقيامه من الركوع وسجوده قريبًا من قراءته؛ فمعنى هذا أنه قائم أغلب الليل إن لم نقل الليل كله.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل، رقم (٧٧٢).

وعن عبد اللَّه بن مسعود ﷺ قال: صلَّيت مع النبي ﷺ ليلةً فلم يزل قائمًا حتى هممت بأمر سوءٍ، قلنا: وما هممت؟ قال: هممت أن أقعد وأذر النبي ﷺ[(١)].

وابن مسعود ﷺ من عبّاد الصحابة فكونه لا يستطيع أن يتحمل عبادة النبي ﷺ فهذا يدل على طول صلاته ﷺ.

وعن مطرفٍ بن عبد اللَّه بن الشخير عن أبيه قال: أتيت النبي ﷺ وهو يصلي ولجوفه أزيز كأزيز المرجل يعني: يبكي[(٢)].

وفي رواية أبي داود: قال رأيت رسول اللَّه ﷺ يصلي وفي صدره أزيز كأزيز الرحى من البكاء ﷺ[(٣)].

والنبي ﷺ لم يكن يعلم أن عبد اللَّه بن الشخير قادم، ولو علم بقدومه فإن البكاء لا يمكن أن يُستدعى بسرعة.

عن عائشة ﷺ قالت: افتقدت النبي ﷺ ذات ليلة فظننت أنه ذهب إلى بعض نسائه فتحسست ثم رجعت فإذا هو راكع أو ساجد يقول: «سبحانك وبحمدك لا إله إلا أنت» فقلت: بأبي أنت وأمي إني لفي شأنٍ وإنك لفي آخر[(٤)].

---

(١) متفق عليه (البخاري: كتاب الجمعة، باب: طول القيام في صلاة الليل، رقم (١٠٨٤)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل، رقم (٧٧٣)).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في أول مسند المدنيين، رقم (١٥٨٧٧)، والنسائي، كتاب السهو، باب: البكاء في الصلاة، رقم (١٢١٤).

(٣) أخرجه أبو داود عن عبد اللَّه بن الشخير ﷺ، كتاب الصلاة، باب: البكاء في الصلاة، رقم (٩٠٤).

(٤) أخرجه مسلم، كتاب الصلاة، باب: ما يقال في الركوع والسجود، رقم (٤٨٥).

فكونها افتقدت النبي ﷺ من فراشها معناه أن النبي ﷺ انسلّ من فراشها من غير ما تشعر وحرص على عدم إظهار صوته فهي لم تسمع دعاءه إلا بعد أن قامت وتحسست بيدها فوقعت يدها عليه وهو يقول: «سبحانك وبحمدك لا إله إلا أنت».

وكان أحيانًا يخرج من بيتها إلى المسجد يصلي في جوف الليل حتى لا تحس به، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: فقدت رسول اللَّه ﷺ ليلةً من الفراش فالتمسته فوقعت يدي على بطن قدميه وهو في المسجد وهما منصوبتان وهو يقول: «اللَّهم أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»[1].

ومثل هذا الحرص الشديد على إخفاء الطاعة والجهد الكبير في عبادة السر لا يصدر إلا من صادق.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الصلاة، باب: ما يقال في الركوع والسجود، رقم (٤٨٦).

المطلب الثاني
الشهادات

- بشارة الكتب السماوية السابقة به
- الداخلون في الإسلام.
- شهادة المنصفين
- عاشرية هرقل.
- كثرة زوجاته ﷺ

بشارة الكتب السماوية السابقة به

شهادة التوراة والإنجيل والكتب السابقة بصدق الرسول ﷺ ومعجزته (القرآن) من أكثر الأدلة غزارة على ذلك، فقد قال ﷻ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٦].

يقول القرطبي: «أي: وإنَّ ذكر نزوله لفي كتب الأولين يعني: الأنبياء، وقيل: أي: إن ذكر محمد عليه السلام في كتب الأولين؛ كما قال تعالى: ﴿يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، والزبر الكتب، الواحد زبور، كرسول ورسل»(١).

وقال ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف: ٦].

وقال ﷻ مبينًا أن النبي ﷺ وأصحابه ليسوا فقط مذكورين في التوراة والإنجيل بأسمائهم، بل بصفتهم كذلك: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ [الفتح: ٢٩].

بل بلغ من وصف الله ﷻ لنبيه ﷺ في الكتب السابقة أنهم أصبحوا يعرفونه

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٣/ ٩٣).

كما يعرف أحدهم ابنه؛ قال ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

وفيما يلي بعض نصوص التوراة والإنجيل(١):

- في التوراة: في سفر التثنية الأصحاح (١٨) فقرة (١٥ - ٣٠): يقول الرب لموسى: «سأقيم لبني إسرائيل نبيا من إخوتهم(٢) مثلك(٣) أجعل كلامي في فيه(٤)، ويقول لهم ما آمره به، والذي لا يقبل قول ذلك النبي الذي يتكلم باسمي أنا أنتقم منه(٥) ومن سبطه».

---

(١) وقد ألف العديد من العلماء كتباً جمعوا فيها النصوص من التوراة والإنجيل، وغيرها من الكتب السابقة، التي تشهد على صدق نبوة نبينا ﷺ، منهم:
- إبراهيم خليل أحمد، ألف كتاب «محمد في التورة والإنجيل والقرآن».
- والداعية أحمد ديدات، ألف كتاب «ماذا تقول التوراة والإنجيل عن محمد ﷺ؟».
- ود. أحمد حجازي السقا، ألف كتاب «البشارة بني الإسلام في التوراة والإنجيل».
- ود. صلاح صالح الراشد، ألف كتاب «البشارات العجاب في صحف أهل الكتاب؛ ٩٩ دليلًا على وجود النبي المبشر في التوراة والإنجيل».
- وفي كتاب ابن القيم رحمه الله «هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى» فصل بعنوان «نصوص الكتب المتقدمة في البشارة بالنبي ﷺ»، وكذا في كتاب شيخه ابن تيمية «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح».

(٢) إخوة بني إسرائيل هم بنو إسماعيل، والنبي ﷺ من بني إسماعيل.

(٣) وذكر الداعية أحمد ديدات ثمانية أوجه تدل على أن محمداً ﷺ مثل موسى عليه السلام وهي ليست في عيسى عليه السلام، انظر: «ماذا تقول التوراة والإنجيل عن محمد ﷺ؟» لديدات (ص٣١ - ٤٢).

(٤) يعني: يحفظ كلام الله، وكان أهل الكتاب لا يحفظون التوراة والإنجيل.

(٥) وهذا قريب من معنى الآية التي في آل عمران: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عمران: ٨١ - ٨٢].

وفي سفر التثنية، الأصحاح (١٨) فقرة (٩ - ١٣): «قال موسى لبني إسرائيل لا تطيعوا العرافين ولا المنجمين، فسيقيم لكم الرب نبيًا من إخوتكم مثلي، فأطيعوا ذلك النبي».

- وفي الإنجيل: في إنجيل يوحنا، الأصحاح (١٤) فقرة (١٥): «إن المسيح قال للحواريين: إني ذاهب وسيأتيكم الفارقليط[١] روح الحق، لا يتكلم من قبل نفسه، إنما هو كما يقال له، وهو يشهد عليَّ وأنتم تشهدون؛ لأنكم معي من قبل الناس»[٢].

وقد أخفى النصارى إنجيل برنابا الذي يصرح فيه باسم النبي محمد ﷺ وأنه النبي المبشر به من قبل المسيح وأنه آخر الرسل[٣].

وصدق اللَّه إذ يقول: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

«وعن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد اللَّه بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قلت: أخبرني عن صفة رسول اللَّه ﷺ في التوراة، قال: أجل واللَّه إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا

---

(١) وبعضهم يقول: (البارقليط) انظر: «تحفة الأريب» (ص: ٢٦٧)، وانظر: «هداية الحيارى» لابن القيم (ص: ١١٥) فإنه يسميه الفارقليط، والخلاف يسير وإنما حدث بسبب الترجمة.

(٢) وقد ذكر الدكتور حجازي أكثر من خمسين نصاً في الإنجيل على البشارة نبينا ﷺ.

(٣) انظر: كتاب الاختلاف والاتفاق بين إنجيل برنابا والأناجيل الأربعة، لمحمد عبد الرحمن عوض، دار البشير، القاهرة، (ذكر النقل عن برنابا. . .).

﴿وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥] وحرزا للأميين أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه اللَّه حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا اللَّه ويفتح بها أعينا عميا وآذانًا صما وقولبا غلفا)[(١)]. وزاد الإمام أحمد: (قال عطاء لقيت كعبًا[(٢)] فسألته فما اختلفا في حرف إلا أن كعبا يقول بلغته: أعينا عمومى وآذانًا صمومى وقلوبا غلوفى»[(٣)].

وعن أبي صخر العقيلي، حدثني رجل من الأعراب قال: جلبت جلوبة[(٤)] إلى المدينة في حياة رسول اللَّه ﷺ، فلما فرغت من بيعتي قلت: لألقين هذا الرجل لأسمعن منه، قال: فتلقاني بين أبي بكر وعمر يمشون، فتبعتهم في أقفائهم حتى أتوا على رجل من اليهود ناشرًا التوراة يقرؤها، يعزي بها نفسه على ابن له في الموت، كأحسن الفتيان وأجمله، فقال رسول اللَّه ﷺ: «انشدك بالذي أنزل التوراة هل تجد في كتابك ذا صفتي ومخرجي»، فقال برأسه هكذا أي: لا، قال ابنه: إني والذي أنزل التوراة إنا لنجد في كتابنا صفتك ومخرجك، أشهد أن لا إله إلا اللَّه وأنك رسول اللَّه، قال: «أقيموا اليهود عن أخيكم، ثم ولي كفنه وحنطه وصلى عليه»[(٥)].

ومن أعجب ما قرأت في هذا الباب قصة أبي محمد عبد اللَّه الميورقي

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب: كراهية السخب في الأسواق، رقم (٢٠١٨).

(٢) يعني: كعب الأحبار الذي كان يهودياً من علماء اليهود ثم أسلم.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده رقم (٦٥٨٥)، وأصله في البخاري كما تقدم.

(٤) يعني: بضاعة، اسم مصدر من جلب، انظر: «لسان العرب» (١/ ٢٦٨).

(٥) أخرجه الإمام أحمد في مسنده رقم (٢٢٩٨١) وإسناده صحيح (صححه الألباني في السلسلة الصحيحة، المجلد السابع، رقم (٣٢٦٩).

الترجمان (المتوفي سنة ٨٣٢هـ)، الذي كان من أكبر قساوسة النصارى في وقته، بل كان مهيئًا لأن يصبح البابا الأكبر، ثم أسلم عندما وقع على آية في الإنجيل تبشر بقدوم النبي ﷺ، ثم ألف كتاب «تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب»، وقسمه قسمين؛ القسم الأول: في ذكر قصة إسلامه، والثاني: في الردود المفصلة على المنصارى[١]، وذكر قصة انتقاله إلى الإسلام في سبع عشرة صفحة هذا مختصرها:

قال: اعلموا رحمكم اللَّه أن أصلي من مدينة ميورقة[٢]، وكان والدي محسوبًا من أهل حاضرة ميورقة، ولم يكن له ولد غيري، ولما بلغت ست سنين من عمري أسلمني إلى معلم من القسيسين، قرأت عليه الإنجيل حتى حفظت أكثره في مدة سنتين على غير عادة قومي، ثم أخذت في تعلم لغة الإنجيل وعمل المنطق في ست سنوات، ثم ارتحلت من بلدي إلى مدينة لاردة من أرض القسطلان[٣]، وهي مدينة العلم عند النصارى في ذلك القطر، ويجتمع فيها طلبة العلم من النصارى، وينتهون إلى ألف وخمسمائة ولا يحكم فيهم إلا القسيس الذي يقرءون عليه، فقرأت فيها علم الطبيعيات والنجامة مدة ست سنين، ثم تصدرت فيها أقرأ الإنجيل ولغته ملازمًا ذلك مدة أربع سنين، ثم ارتحلت إلى مدينة بلونية[٤] من أرض الأنبردية، وهي مدينة كبيرة جدًا، وهي مدينة علم

---

(١) ومن أبواب هذا القسم: باب في شهادة التوراة والإنجيل والزبور وجميع الكتب على نبوة نبينا محمد ﷺ.

(٢) جزيرة في البحر الأبيض المتوسط جنوب إسبانيا وتابعة لها، انظر: «تحفة الأريب» (ص٦١).

(٣) وهي مدينة في الأندلس، انظر: «تحفة الأريب» (ص٦٣).

(٤) هي مدينة تقع في دولة إيطاليا (بولويتا)، وإيطاليا هو أرض الأبزدية، لأنها كانت واقفة تحت سلطان اللومبارديين. (انظر: صفحات منسية من تاريخ الإسلام في إيطاليا، شبكة الألوكة).

ويجتمع بها كل عام من الآفاق أزيد من ألفي رجل يطلبون العلوم، ولا يلبسون إلا الملف الذي هو صباغ اللَّه، فسكنت في كنيسة لقسيس كبير السن عندهم كبير القدر اسمه: (نقلاو مرتيل)، وكانت منزلته فيهم في العلم والدين والزهد رفيعة جدًا، انفرد بها في زمنه عن جميع أهل دين النصرانية، فكانت الأسئلة في دينهم تَرد عليه من الآفاق من جهة الملوك وغيرهم، ويصحب الأسئلة من الهدايا الضخمة ما هو الغاية في بابه، يرغبون في التبرك به، وفي قبوله لهداياهم، ويتشرفون بذلك.

فقرأت على هذا القسيس علم أصوله النصرانية وأحكامها، ولم أزل أتقرب إليه بخدمته والقيام بكثير من وظائفة حتى صيَّرني من أخص خواصه، وانتهيت في خدمتي له وتقربي إليه إلى أن دفع إليَّ مفاتيح مسكنه وخزائن مأكله ومشربه، وصيَر جميع ذلك على يدي، ولم يستثن من ذلك سوى مفتاح بيت صغير بداخل مسكنه كان يخلو فيه بنفسه، والظاهر أنه بيت خزانة أمواله التي كانت تهدي إليه، واللَّه أعلم.

فلازمته على ما ذكرت من القراءة عليه والخدمة له عشر سنين، ثم أصابه مرض يومًا من الدهر، فتخلف عن حضور مجلس إقرائه، وانتظره أهل المجلس وهم يتذاكرون مسائل من العلوم، إلى أن أفضى بهم الكلام إلى قول اللَّه ﷻ على لسان نبيه عيسى عليه السلام في الإنجيل: إنه يأتي من بعده نبي اسمه (البارقليط)[1]، فبحثوا في تعيين هذا النبي من هو من

---

(١) انظر: إنجيل يوحنا (١٥: ١٤ - ١٧)، والكلمة فيه (باركليتكس) وترجمتها في النسخة العربية (المعزي)، وهو تحريف، والصحيح أن معناها (كثير الحمد) انظر: تحفة الأريب (ص٢٦٦ - ٢٦٧).

الأنبياء، وقال كل واحد منهم بحسب علمه، وعظم مقالهم وكثر جدالهم، ثم انصرفوا من غير تحصيل فائدة، فأتيت مسكن القسيس، فقال: ما الذي كان عندكم اليوم من البحث في غيبتي عنكم؟ فأخبرته باختلاف القوم في اسم (البارقليط) وسردت له أجوبتهم، فقال لي: وبماذا أجبت أنت؟ فقلت: بجواب القاضي فلان في تفسيره الإنجيل، فقال لي: ما قصرت وقربت، وفلان أخطأ، وكاد فلان أن يقارب، ولكن الحق خلاف هذا كله؛ لأن تفسير هذا الاسم الشريف لا يعلمه إلا العلماء الراسخون في العلم، وأنتم لم يحصل لكم من العلم إلا القليل، فبادرت قدميه أقبلهما، وقلت له: يا سيدي! قد علمت أني ارتحلت إليك من بلد بعيد، ولي في خدمتك عشر سنين، حصلت عنك فيها من العلوم جملة لا أحصيها، فلعل من جميل إحسانكم أن تمنوا علي بمعرفة هذا الاسم.

فبكى الشيخ وقال لي: يا ولدي! واللَّه إنك لتعز علي كثيرًا من أجل خدمتك لي وانقطاعك إليَّ، في معرفة هذا الاسم الشريف فائدة عظيمة، لكني أخاف عليك أن يظهر ذلك عليك، فتقتلك عامة النصارى في الحين، فقلت له: يا سيدي! واللَّه العظيم، وحق الإنجيل ومن جاء به، لا أتكلم بشيء مما تسره إلي إلا عن أمرك.

فقال لي: إذن فاعلم يا ولدي أن البارقليط هو اسم من أسماء نبي المسلمين محمد ﷺ، وعليه نزل الكتاب الرابع المذكور على لسان دانيال عليه السلام، وأخبر أنه نزل هذا الكتاب عليه، وأن دينه هو دين الحق، وملّته هي الملة البيضاء المذكورة في الإنجيل.

فقلت: وما تقول في دين هؤلاء النصارى؟ فقال لي: يا ولدي! لو أن

النصارى أقاموا على دين عيسى الأول لكانوا على دين الله؛ لأن عيسى وجميع الأنبياء دينهم دين الله، ولكن بدلوا وكفروا.

فقلت: يا سيدي! وكيف الخلاص من هذا الأمر؟ فقال: يا ولدي! بالدخول في دين الإسلام. فقلت: وهل ينجو الداخل فيه؟ قال: نعم ينجو في الدنيا والآخرة. فقلت: يا سيدي! إن العاقل لا يختار لنفسه إلا أفضل ما يعلم؛ فإذا علمت فضل دين الإسلام فما يمنعك منه؟ فقال: يا ولدي! إن الله لم يطلعني على حقيقة ما أخبرتك به إلا بعد كبر سني، ووهن جسمي، ولو هداني الله لذلك وأنا في سنك لتركت كل شيء ودخلت في دين الحق، وحب الدنيا رأس كل خطيئة، وأنت ترى ما أنا فيه عند النصارى، من رفعة الجاه والعز والترف وكثرة عرض الدنيا، ولو أني ظهر علي شيء من الميل إلى دين الإسلام، لقتلتني العامة في أسرع وقت، وهبْ أني نجوت منهم وخلصت إلى المسلمين، فأقول لهم: إني جئتكم مسلمًا، فيقولون لي: قد نفعت نفسك بنفسك بالدخول في دين الحق، فلا تمن علينا بدخولك في دين خلصت فيه نفسك من عذاب الله. فأبقى فيهم شيخًا كبيرًا فقيرًا ابن تسعين، لا أفقه لسانهم، ولا يعرفون حقي[1]. فقلت: يا سيدي! أفتدلني أن أمشي إلى بلاد المسلمين وأدخل دينهم؟ فقال: إن كنت عاقلًا، طالبًا للنجاة، فبادر إلى ذلك تحصل لك الدنيا والآخرة، ولكن يا ولدي هذا أمر لم يحضره أحد معنا الآن، فاكتمه بغاية جهدك، وإن ظهر عليك شيء منه قتلتك العامة

---

(١) وهذا سوء ظن بالمسلمين ولكنه كما قال هو: «حب الدنيا رأس كل خطيئة»، وحدثني أحد المتخصصين في كتب النصارى وتاريخهم من أساتذة الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة أن هذا الرجل أسلم أيضاً وقتله النصارى.

لحينك، ولا أقدر على نفعك، ولا ينفعك أن تنقله عني، فإني أجحده وقولي مصدق عليك، وقولك غير مصدق علي، وأنا بريء من ذلك إن فُهْتُ بشيء. فعاهدته بما يرضيه.

ثم أخذت في أسباب الرحلة وودعته، فدعا لي عند الوداع بخير، فانصرفت إلى بلدي ميورقة، ثم سافرت إلى جزيرة صقلية، وأقمت فيها خمسة أشهر وأنا أنتظر مركبًا يتوجه لأرض المسلمين، فحضر مركب يسافر إلى مدينة تونس، فسافرت فيه من صقلية وأقلعنا عنها قرب مغيب الشفق، فوردنا مرسى تونس قبل الزوال، فلما نزلت بديوان تونس، وسمع بي الذين بها من أحبار النصارى أتوا بمركب وحملوني معهم إلى ديارهم، وصحبهم أيضًا بعض التجار الساكنين أيضًا بتونس، فأقمت عندهم في ضيافتهم على أرغد عيش أربعة أشهر، وبعد ذلك سألتهم هل بدار السلطان أحد يحفظ لسان النصارى، وكان السلطان آنذاك مولانا أبا العباس أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ فذكر لي النصارى أن بدار السلطان المذكور رجلًا فاضلًا من أكبر خدامه اسمه يوسف الطبيب، وكان طبيبه، ومن خواصه، ففرحت بذلك فرحًا شديدًا، وسألت عن مسكن هذا الرجل الطبيب، فدللت عليه واجتمعت به، وذكرت له شرح حالي، وسبب قدومي للدخول في الإسلام، فسرَ الرجل بذلك سرورًا عظيمًا بأن يكون تمام هذا الخير على يديه، ثم ركب فرسه وحملني معه إلى دار السلطان، ودخل عليه فأخبره بحديثي، فاستأذنه لي فأذن لي، فمثلت بين يديه، فأول ما سألني السلطان عن عمري، فقلت له: خمسة وثلاثون عامًا، ثم سألني عمَّا قرأت من العلوم فأخبرته، فقال لي: قدمت قدوم خير، فأسلم على بركة اللّه، فقلت للترجمان - وهو الطبيب المذكور -: قل لمولانا

السلطان إنه لا يخرج أحد من دين إلا ويكثر أهله القول فيه والطعن فيه، فأرغب من إحسانكم أن تبعثوا إلى الذين بحضرتكم من تجار النصارى وأحبارهم، وتسألوهم عني وتسمعوا ما يقولون في جنابي، وحينئذ أسلم إن شاء اللّه ﷺ، فقال لي بواسطة الترجمان: أنت طلبت ما طلب عبد اللّه بن سلام رضي الله عنه من النبي ﷺ.

ثم أرسل إلى أحبار النصارى وبعض تجارهم وأدخلني في بيت قريب من مجلسه، فلما دخل النصارى عليه قال لهم: ما تقولون في هذا القسيس الجديد الي قدم في هذا المركب؟ قالوا له: يا مولانا! هذا عالم كبير في ديننا، وقالت شيوخنا: إنهم ما رأوا أعلى من درجته في العلم والدين في ديننا، فقال لهم: وما تقولون فيه إذا أسلم؟ قالوا: نعوذ باللّه من ذلك هو ما يفعل ذلك أبدًا، فلما سمع ما عند النصارى بعث إليّ، فحضرت بين يديه وشهدت شهادتي الحق بمحضر النصارى، فصلّبوا على وجوههم، وقالوا: ما حمله على هذا إلا حب التزويج، فإن القسيس عندنا لا يتزوج، وخرجوا مكروبين محزونين، فرتَّب لي السلطان رحمه الله ربع دينار كل يوم في دار المختص، وزوجني ابنة الحاج محمد الصفار، فلما عزمت على البناء بها، أعطاني مائة دينار ذهبًا وكسوة جيدة كاملة، فبنيت بها، وولد لي منها ولد سميته محمدًا على وجه التبرك باسم نبينا ﷺ[1].

* * * * *

(١) كتاب تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب لأبي محمد عبد اللّه الميورقي الترجمان (ص٦١ - ٧٦)، طبعته دار البشائر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٨ (بتصرف).

الداخلون في الإسلام

لكل من دخل في الإسلام قصة، أو موقف، أو عنده علم من كتب السابقة، أو رأى شيئًا من محاسن الإسلام، أو تنبه لأمر، أو لاحظ ملحظًا، أو قرأ شيئًا، أو سمع عن شيء من جمال هذا الدين، أو ذهل من القرآن، أو أخذت سيرة النبي ﷺ بمجامع قلبه... إلخ.

فهذه المواقف من أعظم الأدلة على صدق النبي ﷺ وصدق القرآن العظيم.

قال ﷻ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٠]، قال القرطبي: «قال ابن عباس والحسن وعكرمة وقتادة ومجاهد: هو عبد اللَّه بن سلام، شهد على اليهود أن رسول اللَّه ﷺ مذكور في التوراة، وأنه نبي من عند اللَّه، وفي الترمذي عنه: نزلت فيَّ آيات من كتاب اللَّه؛ نزلت فيَّ: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٠].

ولما جاء ابن سلام مُسْلمًا من قبل أن تعلم اليهود بإسلامه قال: يا رسول اللَّه! اِجْعلني حكمًا بينك وبين اليهود، فسألهم عنه: «أي رجل هو فيكم؟». قالوا: سيدنا وعالمنا. فقال: «إنه قد آمن بي»، فأساؤوا القول فيه»[(١)].

«روى أنس رضي الله عنه قال: سمع عبد اللَّه بن سلام رضي الله عنه بقدوم رسول اللَّه ﷺ، وهو في أرض يَخْتَرِفُ[(٢)]، فَأتى النبي ﷺ فقال: إني سائلك عن ثلاث

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ١٢٥) بتصرف.

(٢) أي: وهو يقيم فيها وقت اجتناء الثمر في الخريف، الوسيط (خ ر ف).

لا يعلمهن إلا نبي، فما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام أهل الجنة؟ وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه؟ قال ﷺ: «أخبرني بهن جبريل آنفًا» قال: جبريل؟ قال: «نعم» قال: ذاك عدو اليهود من الملائكة، فقرأ هذه الآية ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٩٧]، أمَّا أول أشراط الساعة، فنار تحشر الناس من المشرق إلى الغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد حوت، وإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد، وإذا سبق ماء المرأة نزعت» قال: أشهد أن لا إله إلا اللَّه وأشهد أنك رسول اللَّه، يا رسول اللَّه! إن اليهود قوم بهت، وإنهم إن يعلموا بإسلامي قبل أن تسألهم يبهتوني، فجاءت اليهود فقال النبي ﷺ: «أي رجل عبد اللَّه فيكم؟» قالوا: خيرنا وابن خيرنا،وسيدنا وابن سيدنا، قال: «أرأيتم إن أسلم عبد اللَّه بن سلام»، فقالوا: أعاذه اللَّه من ذلك. فخرج عبد اللَّه فقال: أشهد أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدًا رسول اللَّه، فقالوا: شرنا وابن شرنا، وانتقصوه، قال: فهذا الذي كنت أخاف يا رسول اللَّه»[١].

شهادة النجاشي:

وهذه شهادة النجاشي ملك الحبشة، وسيد النصارى في زمانه، بل إنه أسلم؛ فقد أخرج الإمام أحمد عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «بعثنا رسول اللَّه ﷺ إلى النجاشي ونحن نحو من ثمانين رجلًا، فيهم عبد اللَّه ابن مسعود، وجعفر، وعبد اللَّه بن عرفطة، وعثمان بن مظعون، وأبو موسى، فأتوا النجاشي، وبعثت قريش عمرو بن العاص، وعمارة بن

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب: من كان عدواً لجبريل، رقم (٤٢١٠).

الوليد، بهدية فلما دخلا على النجاشي سجدا له، ثم ابتدراه عن يمينه وعن شماله، ثم قالا له: إن نفرًا من بني عمنا نزلوا أرضك ورغبوا عنا وعن ملتنا. قال: فأين هم؟ قال: هم في أرضك فابعث إليهم. فبعث إليهم، فقال جعفر: أنا خطيبكم اليوم، فاتبعوه فسلم ولم يسجد، فقالوا له: ما لك لا تسجد للملك؟ قال: إنا لا نسجد إلا للَّه ﷻ. قال: وما ذاك: قال: إن اللَّه ﷻ بعث إلينا رسوله ﷺ، وأمرنا أن لا نسد لأحدٍ إلا للَّه ﷻ، وأمرنا بالصلاة والزكاة، قال عمرو بن العاص: فإنهم يخالفونك في عيسى ابن مريم، قال: ما تقولون في عيسى ابن مريم وأمَّه؟ قالوا: نقول كما قال اللَّه عز وجل، هو كلمة اللَّه وروحه، ألقاها إلى العذراء البتول، التي لم يمسها بشر، ولم يفرضها ولد، قال: فرفع عودًا من الأرض، ثم قال: يا معشر الحبشة والقسيسين والرهبان، واللَّه ما يزيدون على الذي نقول فيه ما يسوى هذا - يعني العود - مرحبًا بكم وبمن جئتم من عنده، أشهد أنه رسول اللَّه، فإنه الذي نجد في الإنجيل، وإنه الرسول الذي بشر به عيسى ابن مريم، انزلوا حيث شئتم، واللَّه لولا ما أنا فيه من الملك، لأتيته حتى أكون أنا أحمل نعليه وأوضئه، وأمر بهدية الآخرين فردت إليهما، ثم تعجل عبد اللَّه بن مسعود حتى أدرك بدرًا، وزعم أن النبي ﷺ استغفر له حين بلغه موته»[1].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند رقم (٤٣٨٦)، وإسناده ثقات إلا حديج بن معاوية، قال عنه ابن حجر في تقريب التهذيب (ص٢٢٦): صدوق يخطئ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٢٤): رواه أحمد والطبراني وفيه حديج بن معاوية، وثقه أبو حاتم، وقال: في بعض حديثه ضعف، وضعفه ابن معين وغيره، وبقية رجاله ثقات. اهـ، وله شواهد كثيرة من حديث أم سلمة، ومحمد بن حاطب، وجعفر بن أبي طالب، وأبي موسى ﷺ أخرجها الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٢٤ - ٣٧).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول اللَّه ﷺ نعى النجاشي في اليوم الذي مات فيه فخرج إلى المصلى، فصف بهم وكبر أربعًا[١].

فصلاة النبي ﷺ عليه تدل على إسلامه.

من أعظم الشهادات هذا الموج المتتابع من قوافل الداخلين في الإسلام، الذي يقدر عشرات الألوف سنويًا على مستوى العالم، بل نستطيع أن نقول وبكل ثقة: إنه لا تمر ساعة إلا ويسلم فيها إنسان على مستوى العالم[٢].

وقد ألف د. جفري لانغ الأمريكي كتابًا بعنوان: «الصراع من أجل الإيمان»، يتكلم فيه عن سبب إسلامه، وأنه كان بعد تأمل طويل في الدين، ثم عقد فصلاً بعنوان: «رسول اللَّه» تكلم فيه كلامًا طويلاً في كيفة إعجابه بشخصية الرسول ﷺ، وكيف استدل على صدقه[٣].

وقد ألَّف د. خالد السيوطي كتابًا حافلاً بعنوان: «المهتدون إلى الإسلام

---

(١) متفق عليه (البخاري: كتاب الجنائز، باب: الرجل ينعي إلى أهل الميت بنفسه، رقم (١١٨٨)، ومسلم، كتاب الجنائز، باب: في التكبير على الجنائز، رقم (٩٥١)) وورد في الصحيحين عن جابر أيضاً.

(٢) سألت الإخوة في لجنة التعريف بالإسلام فأخبروني أنه في أمريكا فقط يسلم أكثر من ثلاثين ألفاً سنوياً، وفي لجنة مسلمي إفريقيا يتجاوز الداخلون في الإسلام المائة ألف كل سنة، ناهيك عن أعداد الذين يسلمون في أوروبا والأمريكتين وآسيا واستراليا، والذين يأتون إلى الدول العربية من غير المسلمين.

(٣) الصراع من أجل الإيمان، انطباعات أمريكي اعتنق الإيمان، د. جفري لانغ (ص١٢١)، ترجمة د. منذر العبسي، دار الفر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م، وقد ألف كتاباً آخر بعنوان: «حتى الملائكة تسأل، رحلة الإسلام في أمريكا»، ترجمة د. منذر العبسي، دار الفكر المعاصر، بيروت الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.

من قساوسة النصارى وأحبار اليهود حتى القرن التاسع الهجري»[١]، وذكر فيه قصصًا كثيرة ومواقف عجيبة لقوم أسلموا وهم من العلماء والأحبار في الديانتين اليهودية والنصرانية.

* * * * *

(١) طبعته مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م.

شهادة المنصفين

الكثير من المخالفين لديننا - سواء كانوا أهل كتاب أو ملاحدة - شهدوا لنبينا ﷺ بالصدق وأنه نبي من اللَّه حقًا، وبعضهم أسلم، وبعضهم لم يسلم ولكنه أنصف، وإذا كان المخالف المتربص المتصيد للأخطاء أقرَّ بصحة مذهب خصمه؛ فهذا من أقوى الأدلة على صدق النبي ﷺ، وقد قيل سابقًا:

وشمائلُ شَهِدَ العَدُوُّ بفضِلها والفضلُ ما شَهِدَتْ به الأعْدَاءُ

وقيل:

ما قولُ مولانا الإمامُ البدرُ مَن بعلومه شهد العدوُ الحاسدُ

وأخرج الإمام الترمذي عن أبي موسى ﵁ قال: خرج أبو طالب إلى الشام، وخرج معه النبي ﷺ في أشياخ من قريش، فلما أشرفوا على الراهب هبطوا فحلوا رحالهم، فخرج إليهم الراهب، وكانوا قبل ذلك يمرون به فلا يخرج إليهم ولا يلتفت، قال: فهم يحلون رحالهم، فجعل يتخللَّهم الراهب حتى جاء فأخذ بيد رسول اللَّه ﷺ، قال: هذا سيد العالمين، هذا رسول رب العالمين، يبعثه اللَّه رحمة للعالمين، فقال له اشياخ من قريش: ما علمك؟ فقال: إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق شجر ولا حجر إلا خر ساجدًا، ولا يسجدان إلا لنبي، وإني أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه مثل التفاحة، ثم رجعل فصنع لهم طعامًا، فلما أتاهم به وكان هو في رعية الإبل، قال: أرسلوا إليه. فأقبل وعليه غمامة تظله، فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فيء الشجرة، فلما جلس مال فيء الشجرة عليه، فقال: انظروا إلى فيء الشجرة مال عليه، قال: فبينما هو قائم عليهم، وهو يناشدهم أن لا يذهبوا به إلى الروم؛

فإن الروم إذا رأوه عرفوه بالصفة فيقتلونه، فالتفت فإذا بسبعة قد أقبلوا من الروم فاستقبلهم، فقال: ما جاء بكم؟ قالوا: جئنا إن هذا النبي خارج في هذا الشهر، فلم يبق طريق إلا بعث إليه بأناس، وإنا قد أخبرنا خبره، بعثنا إلى طريقك هذا. فقال: هل خلفكم أحد هو خير منكم؟ قالوا: إنما أخبرنا خبره بطريقك هذا. قال: أفرأيتم أمرًا أراد اللَّه أن يقضيه هل يستطيع أحدٌ من الناس رده؟ قالوا: لا. قال: فبايعوه. وأقاموا معه، قال: أنشدكم باللَّه أيكم وليه. قالوا: أبو طالب، فلم يزل يناشده حتى ردَّه أبو طالب، وبعث معه أبو بكر بلالاً، وزوده الراهب من الكعك والزيت[1].

وهذه شهادة أخرى من خير قساوسة النصارى في وقته للنبي ﷺ:

أخرج الإمام أحمد عن عبد اللَّه بن عباس رضي الله عنهما قال حدثني سلمان الفارسي رضي الله عنه حديثه من فيه قال: كنت رجلاً فارسيًا من أهل أصبهان[2]، من أهل قرية منها يقال لها جي، وكان أبي دهقان قريته، وكنت أحب خلق اللَّه إليه، فلم يزل به حبه إياي حتى حبسني في بيته كما تحبس الجارية، واجتهدت في المجوسية حتى كنت قَطَنَ النارِ الذي

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب المناقب، باب: ما جاء في بدء نبوة النبي ﷺ، رقم (٣٦٢٠)، وإسناده حسن، ولكن ذكر أبي بكر وبلال في الحديث منكر، كما نص على ذلك كثير من العلماء - كالذهبي وابن القيم وابن حجر والمباركفوري - لأن أبا بكر أصغر من النبي ﷺ بستين وبلالًا لم يولد في ذلك التاريخ بعد، فقوله: «وبعث معه أبو بكر بلالًا» غير صحيح؛ والصحيح كما في رواية البزار (وأرسل معه عمه رجالًا)، انظر: صحيح سنن الترمذي، للالباني (٣/ ١٩١)، والمشكاة رقم (٥٩١٨) تحقيق الألباني، والصحيح المسند من دلائل النبوة، للوادعي (ص٨٠)، وتحفة الأحوذي للمباركفوري (١٠/ ٦٦).

(٢) أصبهان مدينة مشهورة في إيران ولا زالت معروفة بهذا الاسم.

يوقدها لا يتركها تخبو ساعة، قال: وكانت لأبي ضيعة عظيمة، قال: فشغل في بنيان له يوما، فقال لي: يا بني، إني قد شغلت في بنيان هذا اليوم عن ضيعتي، فاذهب فاطلعها، وأمرني فيها ببعض ما يريد، فخرجت أريد ضيعته، فمررت بكنيسة من كنائس النصارى، فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلون، وكنت لا أدري ما أمر الناس لحبس أبي إياي في بيته، فلما مررت بهم، وسمعت أصواتهم، دخلت عليهم أنظر ما يصنعون، قال: فلما رأيتهم أعجبني صلاتهم، ورغبت في أمرهم، وقلت: هذا واللَّه خير من الدين الذي نحن عليه، فواللَّه ما تركتهم حتى غربت الشمس، وتركت ضيعة أبي ولم آتها، فقلت لهم: أين أصل هذا الدين؟ قالوا: بالشام قال: ثم رجعت إلى أبي، وقد بعث في طلبي وشغلته عن عمله كله، قال: فلما جئته، قال: أي بني، أين كنت؟ ألم أكن عهدت إليك ما عهدت؟ قال: قلت: يا أبتِ، مررت بناس يصلون في كنيسة لهم فأعجبني ما رأيت من دينهم، فواللَّه مازلت عندهم حتى غربت الشمس، قال: أي بني، ليس في ذلك الدين خير، دينك ودين آبائك خير منه، قال: قلت: كلا واللَّه إنه لخير من ديننا، قال: فخافني، فجعل في رجلي قيدا، ثم حبسني في بيته، قال: وبعثت إلى النصارى فقلت لهم: إذا قدم عليكم ركب من الشام تجار من النصارى فأخبروني بهم، قال: فقدم عليهم ركب من الشام تجار من النصارى، قال: فأخبروني بهم، قال: فقلت لهم: إذا قضوا حوائجهم وأرادوا الرجعة إلى بلادهم فآذنوني بهم، قال: فلما أرادوا الرجعة إلى بلادهم أخبروني بهم، فألقيت الحديد من رجلي، ثم خرجت معهم حتى قدمت الشام، فلما قدمتها، قلت: من أفضل أهل هذا الدين؟ قالوا: الأسقف في الكنيسة، قال: فجئته، فقلت: إني قد رغبت في هذا الدين، وأحببت أن أكون معك أخدمك في

كنيستك، وأتعلم منك وأصلي معك، قال: فادخل فدخلت معه، قال: فكان رجل سوء يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها، فإذا جمعوا إليه منها أشياء، اكتنزه لنفسه، ولم يعطه المساكين، حتى جمع سبع قلال من ذهب وورق، قال: وأبغضته بغضا شديدا لما رأيته يصنع، ثم مات، فاجتمعت إليه النصارى ليدفنوه، فقلت لهم: إن هذا كان رجل سوء يأمركم بالصدقة ويرغبكم فيها فإذا جئتموه بها اكتنزها لنفسه، ولم يعط المساكين منها شيئا، قالوا: وما علمك بذلك؟، قال: قلت أنا أدلكم على كنزه، قالوا: فدلنا عليه، قال: فأريتهم موضعه، قال: فاستخرجوا منه سبع قلال مملوءة ذهبا وورقا، قال: فلما رأوها قالوا: واللَّه لا ندفنه أبدا فصلبوه، ثم رجموه بالحجارة، ثم جاءوا برجل آخر، فجعلوه بمكانه، قال: يقول سلمان: فما رأيت رجلا لا يصلي الخمس، أرى أنه أفضل منه، أزهد في الدنيا، ولا أرغب في الآخرة، ولا أدأب ليلا ونهارا منه، قال: فأحببته حبا لم أحبه من قبله، فأقمت معه زمانا، ثم حضرته الوفاة، فقلت له: يا فلان إني كنت معك وأحببتك حبا لم أحبه من قبلك وقد حضرك ما ترى من أمر اللَّه، فإلى من توصي بي، وما تأمرني؟، قال: أي بني واللَّه ما أعلم أحدا اليوم على ما كنت عليه، لقد هلك الناس وبدلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه، إلا رجلا بالموصل، وهو فلان، فهو على ما كنت عليه، فالحق به، قال: فلما مات وغيب، لحقت بصاحب الموصل فقلت له: يا فلان، إن فلانا أوصاني عند موته أن ألحق بك، وأخبرني أنك على أمره، قال: فقال لي: أقم عندي فأقمت عنده، فوجدته خير رجل على أمر صاحبه، فلم يلبث أن مات، فلما حضرته الوفاة، قلت له: يا فلان، إن فلانا أوصى بي إليك، وأمرني باللحوق بك، وقد حضرك من اللَّه عز وجل ما ترى، فإلى من توصي بي، وما تأمرني؟ قال: أي بني، واللَّه ما

أعلم رجلا على مثل ما كنا عليه إلا بنصيبين[١]، وهو فلان، فالحق به، قال: فلما مات وغيب لحقت بصاحب نصيبين، فجئته فأخبرته خبري، وما أمرني به صاحبي، قال: فأقم عندي، فأقمت عنده، فوجدته على أمر صاحبيه، فأقمت مع خير رجل، فواللَّه ما لبث أن نزل به الموت، فلما حضر، قلت له: يا فلان، إن فلانا كان أوصى بي إلى فلان، ثم أوصى بي فلان إليك، فإلى من توصي بي، وما تأمرني؟ قال: أي بني، واللَّه ما نعلم أحدا بقي على أمرنا آمرك أن تأتيه إلا رجلا بعمورية، فإنه على مثل ما نحن عليه، فإن أحببت فأته، قال: فإنه على أمرنا، قال: فلما مات وغيب لحقت بصاحب عمورية[٢]، وأخبرته خبري، فقال: أقم عندي، فأقمت مع رجل على هدي أصحابه وأمرهم، قال: واكتسبت حتى كان لي بقرات وغنيمة، قال: ثم نزل به أمر اللَّه، فلما حضر قلت له: يا فلان، إني كنت مع فلان، فأوصى بي فلان إلى فلان، وأوصى بي فلان إلى فلان، ثم أوصى بي فلان إليك، فإلى من توصي بي، وما تأمرني؟ قال: أي بني، واللَّه ما أعلمه أصبح على ما كنا عليه أحد من الناس آمرك أن تأتيه، ولكنه قد أظلك زمان نبي هو مبعوث بدين إبراهيم يخرج بأرض العرب، مهاجرا إلى أرض بين حرتين بينهما نخل، به علامات لا تخفى: يأكل الهدية، ولا يأكل الصدقة، بين كتفيه خاتم النبوة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل، قال: ثم مات وغيب، فمكثت بعمورية ما شاء اللَّه أن أمكث، ثم مر بي نفر من كلب تجارا، فقلت

---

(١) نصيبين: مدينة تاريخية تقع حالياً ضمن حدود دولة تركيا وتتبع لمحافظة ماردين على الحدود السورية.

(٢) عمورية: مدينة تاريخية تقع حالياً ضمن حدود دولة تركيا في محافظة أفيون قرة، وأصبحت مهجورة بعد هجوم الخليفة المعتصم عليها عام ٢٢٣هـ.

لهم: تحملوني إلى أرض العرب، وأعطيكم بقراتي هذه وغنيمتي هذه؟ قالوا: نعم فأعطيتهموها وحملوني، حتى إذا قدموا بي وادي القرى ظلموني فباعوني من رجل من يهود عبدا، فكنت عنده، ورأيت النخل، ورجوت أن تكون البلد الذي وصف لي صاحبي، ولم يحق[١] لي في نفسي، فبينما أنا عنده، قدم عليه ابن عم له من المدينة من بني قريظة فابتاعني منه، فاحتملني إلى المدينة، فواللَّه ما هو إلا أن رأيتها فعرفتها بصفة صاحبي، فأقمت بها وبعث اللَّه رسوله، فأقام بمكة ما أقام لا أسمع له بذكر مع ما أنا فيه من شغل الرق، ثم هاجر إلى المدينة، فواللَّه إني لفي رأس عذق لسيدي أعمل فيه بعض العمل، وسيدي جالس، إذ أقبل ابن عم له حتى وقف عليه، فقال: فلان، قاتل اللَّه بني قيلة[٢]، واللَّه إنهم الآن لمجتمعون بقباء على رجل قدم عليهم من مكة اليوم، يزعمون أنه نبي، قال: فلما سمعتها أخذتني العرواء، حتى ظننت سأسقط على سيدي، قال: ونزلت عن النخلة، فجعلت أقول لابن عمه ذلك: ماذا تقول؟ ماذا تقول؟ قال: فغضب سيدي فلكمني لكمة شديدة، ثم قال: ما لك ولهذا أقبل على عملك، قال: قلت: لا شيء، إنما أردت أن أستثبته عما، قال: وقد كان عندي شيء قد جمعته، فلما أمسيت أخذته ثم ذهبت إلى رسول اللَّه ﷺ وهو بقباء، فدخلت عليه، فقلت له: إنه قد بلغني أنك رجل صالح، ومعك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة، وهذا شيء كان عندي للصدقة، فرأيتكم أحق به من غيركم قال: فقربته إليه، فقال رسول اللَّه ﷺ لأصحابه: «كلوا» وأمسك يده فلم يأكل، قال:

---

(١) أي يتحقق.

(٢) هم الأوس والخزرج، نسبهم لأمهم الكبرى التي تجمع نسبهم، قيلة بنت الأرقم.

فقلت في نفسي: هذه واحدة، ثم انصرفت عنه فجمعت شيئا، وتحول رسول اللّه ﷺ إلى المدينة، ثم جئته به، فقلت: إني رأيتك لا تأكل الصدقة، وهذه هدية أكرمتك بها، قال: فأكل رسول اللّه ﷺ منها وأمر أصحابه فأكلوا معه، قال: فقلت في نفسي: هاتان اثنتان، قال: ثم جئت رسول اللّه ﷺ وهو ببقيع الغرقد، قال: وقد تبع جنازة من أصحابه، عليه شملتان له، وهو جالس في أصحابه، فسلمت عليه، ثم استدرت أنظر إلى ظهره، هل أرى الخاتم الذي وصف لي صاحبي؟ فلما رآني رسول اللّه ﷺ استدبرته، عرف أني أستثبت في شيء وُصف لي، قال: فألقى رداءه عن ظهره، فنظرت إلى الخاتم فعرفته، فانكببت عليه أقبله وأبكي، فقال لي رسول اللّه ﷺ: «تحول» فتحولت، فقصصت عليه حديثي كما حدثتك يا ابن عباس، قال: فأعجب رسول اللّه ﷺ أن يسمع ذلك أصحابه، . . .» الحديث[١].

ومن هذه الشهادات أيضًا:

ما رواه ثوبان مولى رسول اللّه ﷺ قال: كنت قائما عند رسول اللّه ﷺ فجاء حَبْر من أحبار اليهود فقال: السلام عليك يا محمد، فدفعته دفعة كاد يصرع منها، فقال: لم تدفعني؟ فقلت: ألا تقول يا رسول اللّه، فقال اليهودي: إنما ندعوه باسمه الذي سماه به أهله. فقال رسول اللّه ﷺ: «إن اسمي محمد الذي سماني به أهلي»، فقال اليهودي: جئت أسألك، فقال له رسول اللّه ﷺ: «أينفعك شيء إن حدثتك؟» قال: أسمع بأذني،

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده رقم (٢٣٢٢٥) وإسناده حسن؛ قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٥٥٩): (رجاله رجال الصحيح إلا محمد بن إسحاق فإنه ثقة مدلس، وقد صرح بالسماع فانتفت شبهة التدليس)، ونقل الكلام السابق الساعاتي في الفتح الرباني (٢٢/ ٢٦٦) واقرّه.

فنكت رسول اللَّه ﷺ بعود معه، فقال: «سل» فقال اليهودي: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات؟ فقال رسول اللَّه ﷺ: «هم في الظلمة دون الجسر» قال: فمن أول الناس إجازة؟ قال: «فقراء المهاجرين» قال اليهودي: فما تحفتهم حين يدخلون الجنة؟ قال: «زيادة كبد النون»، قال: فما غذاؤهم على إثرها؟ قال: «ينحر لهم ثور الجنة الذي كان يأكل من أطرافها» قال: فما شرابهم عليه؟ قال: «من عين فيها تسمى سلسبيلا» قال: صدقت. قال: وجئت أسألك عن شيء لا يعلمه أحد من أهل الأرض إلا نبي أو رجل أو رجلان. قال: «ينفعك إن حدثتك؟» قال: أسمع بأذني. قال: جئت أسألك عن الولد؟ قال: «ماء الرجل أبيض، وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعا، فعلا مني الرجل مني المرأة، أذكرا بإذن اللَّه، وإذا علا مني المرأة مني الرجل، آنثا بإذن اللَّه». قال اليهودي: لقد صدقت، وإنك لنبي، ثم انصرف فذهب. فقال رسول اللَّه ﷺ: «لقد سألني هذا عن الذي سألني عنه، وما لي علم بشيء منه، حتى أتاني اللَّه به»[١].

ويقول الجلندي ملك غسان - لما بلغه رسول اللَّه ﷺ يدعوه إلى الإسلام -: «واللَّه لقد دلني على هذا النبي الأمي؛ أنه لا يأمر بخير إلا كان أول آخذ به، ولا ينهى عن شر إلى كان أول تارك له، وأنه يغلب فلا يبطر، ويُغلب فلا يضجر، ويفي بالعهد، وينجز الوعد، وأشهد أنه نبي»[٢].

وفي قصة الميورقي - كما تقدم - شهادة واضحة من أكبر علماء النصارى

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الحيض، باب: بيان صفة مني الرجل والمرأة، رقم (٣١٥).
(٢) الروض الأنف شرح سيرة ابن هشام (٤/ ٢٥٠٩).

في عصره على صدق النبي ﷺ.

وقد شهد له هرقل عظيم الروم - وكان من علماء النصارى - بأنه نبي صادق كما سيأتي.

وإليك بعض هذه النصوص من بعض المعاصرين:

- «كان محمد ﷺ خاتم النبيين، وأعظم الرسل الذين بعثهم اللَّه ليدعو الناس إلى عبادة اللَّه...» [واشنجتون ايرقنج[1]][2].

- «إن أشد ما نتطلع إليه بالنظر إلى الديانة الإسلامية، ما اختص منها بشخص النبي محمد ﷺ، وبذلك قصدت أن يكون بحثي أولاً في تحقيق شخصيته، وتقرير حقيقته الأدبية؛ علَّني أجد في هذا البحث دليلاً جديدًا على صدقه وأمانته، المتفق تقريبًا عليها بين جميع مؤرخي الديانات، وأكبر المتشيعين للدين المسيحي...» [هنري دي فاستري[3]][4].

- «هل رأيتم قط رجلاً كاذبًا يستطيع أن يوجد دينًا عجيبًا؟ إنه لا يقدر أن يبني بيتًا من الطوب، فهو لم يكن عليمًا بخصائص الجير والجص والتراب

---

(١) مستشرق أمريكي، أولى اهتماماً كبيراً بتاريخ المسلمن في الأندلس، من آثاره: (سيرة النبي العربي)، مذيلة بخاتمة لقواعد الإسلام ومصادرها الدينية، و(فتح غرناطة) ألفه في تاريخ (١٨٥٩). انظر: قالوا عن الإسلام (ص٥٠)، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الرياض، الطبعة الأولى، ١٩٩٢م.

(٢) انظر: حياة محمد، لإميل در منغم (ص٧٢)، ترجمة عادل زعيتر، الطبعة الثانية، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩١١م.

(٣) مقدم في الجيش الفرنسي، ولد سنة ١٨٥٠وتوفي ١٩٢٧م، قضى في الشمال الإفريقي ردحاً من الزمن، من آثاره: مصادر غير منشورة عن تاريخ المغرب، والأشراف السعديون، ورحلة هولندي إلى المغرب، وغيرها، انظر: قالوا عن الإسلام (ص٦١).

(٤) قالوا عن الإسلام، د. عماد الدين خليل (ص١٠٨).

وما شاكل ذلك، فما ذلك الذي يبنيه بيت، إنما هو تلٌّ من الأنقاض، وكثيب من أخلاط المواد؛ وليس جديرًا أن يبقى على دعائمه اثني عشر قرنًا يسكنه مائتا مليون من الأنفس[١]، ولكنه جدير أن تنهار أركانه فينهدم، فكأنه لم يكن، وإني لأعلم أن على المرء أن يسير في جميع أموره طبق قوانين الطبيعة، وإلا أبت أن تجيبه طلبته، كذبٌ ما يذيعه أولئك الكفار وإن زخرفوه حتى تخيلوه حقًا، ومحنةُ أن ينخدع الناس - شعوبًا وأممًا - بهذه الأضاليل...» [توماس كارلايل[٢]][٣].

- ويقول كارلايل أيضًا: «لقد اصبح من أكبر العار على كل فرد متمدن في هذا العصر، أن يصغي إلى القول بأن دين الإسلام كذب، وأن محمدًا خداع مزور، فإن الرسالة التي أداها ذلك الرجل، وما زالت السراج المنير مدة اثني عشر قرنًا لمئات الملايين من الناس أمثالنا، خلقهم اللَّه الذي خلقنا.

أكان أحدهم يظن أن هذه الرسالة التي عاش بها ومات عليها هذه الملايين الفائقة الحصر والعد أكذوبة وخدعة؟ أما أنا فلا أستطيع أن أرى هذا الرأي أبدًا، فلو أن الكذب والغش يروجان عند خلق اللَّه هذا الرواج، ويصادفان منهم ذلك التصديق والقبول، فما الناس إذًا إلا بلهٌ ومجانينٌ، وما الحياة إلا سخف وعبث؛ كان الأولى ألا تُخلق»[٤].

---

(١) تعداد المسلمين جاوز المليار، ولكن هذا العالم يتحدث عن علمه ووقته حيث إنه ولد سنة ١٧٩٥م.

(٢) كاتب إنجليزي معروف، ولد سنة ١٧٩٥م، وتوفي ١٨٨١م، من آثاره (الأبطال)، وقد عقد فيه فصلًا رائعاً عن النبي ﷺ، انظر: «قالوا عن الإسلام» (ص١٢٣).

(٣) «قالوا عن الإسلام» (ص١٢٣).

(٤) انظر: القرآن والمستشرقون، د. التهامي نقرة (ص٢٥).

إلى غير ذلك من الشهادات الصادقة التي ما تركتها إلا إيثارًا للاختصار، وقد جمعت في كتب كثيرة منها كتاب «قالوا عن الإسلام» الذي أصدرته الندوة العالمية للشباب، وهو كتاب حافل مليء بالنقول والشهادات والاعترافات من جميع الملل.

* * * * *

عاشرية هرقل

ملك الأوربيين الأسبق هرقل عظيم الروم - وكان من علماء النصاري - سأل أحد أكبر أعداء النبي ﷺ في وقته عشرةَ أسئلة تحقق منها صدق النبي ﷺ ونبوته، وإليك هذه الحديث العجب كما في الصحيحين:

عن عبد اللَّه بن عباس رضي الله عنهما أن أبا سفيان بن حرب أخبره أنَّ هرقل أرسل إليه في ركبٍ من قريش، وكانوا تجارًا بالشأم في المدَّة التي كان رسول اللَّه ﷺ مادَّ فيها أبا سفيان وكفار قريش، فأتوه وهم بإيلياء فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا بترجمانه فقال: أيكم أقرب نسبًا بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان: فقلت: أنا أقربهم نسبًا. فقال: أدنوه مني وقربوا أصحابه، فاجعلوهم عند ظهره، ثم قال لترجمانه: قل لهم إني سائل هذا عن هذا الرجل فإن كذبني فكذبوه، فواللَّه لولا الحياء من أن يأثروا عليَّ كذبًا لكذبت عنه، ثم كان أول ما سألني عنه أن قال:

١- كيف نسبه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسبٍ.

٢- قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ قلت: لا.

٣- قال: فهل كان من آبائه من مَلِك؟ قلت: لا.

٤- قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فقلت: بل ضعفاؤهم.

٥- قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون.

٦- قال: فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا

٧- قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا

٨- قال: فهل يغدر؟ قلت: لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعلٌ

فيها. قال: ولم تُمَكِنّي كلمةٌ أدخل فيها شيئًا غير هذه الكلمة.

٩- قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم. قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا وننال منه.

١٠- قال: ماذا يأمركم؟ قلت: يقول: اعبدوا اللَّه وحده ولا تشركوا به شيئًا، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة، والزكاة، والصدق، والعفاف، والصلة.

فقال للترجمان: قل له: سألتك عن نسبه، فذكرت أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها، وسألتك هل قال أحدٌ منكم هذا القول، فذكرت أن لا، فقلت: لو كان أحدٌ قال هذا القول قبله، لقلت: رجل يأتسي بقولٍ قيل قبله، وسألتك هل كان من آبائه من ملكٍ، فذكرت أن لا، قلت: فلو كان من آبائه من ملكٍ قلت: رجل يطلب ملك أبيه، وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فذكرت أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على اللَّه، وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم، فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل، وسألتك أيزيدون أم ينقصون، فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم، وسألتك أيرتد أحدٌ سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه، فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب، وسألتك هل يغدر، فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر، وسألتك بما يأمركم، فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا اللَّه ولا تشركوا به شيئًا، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف، فإن كان ما تقول حقًا، فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه ولو كنت

عنده لغسلت عن قدمه، ثم دعا بكتاب رسول اللَّه ﷺ الذي بعث به دحية إلى عظيم بصرى، فدفعه إلى هرقل فقرأه فإذا فيه: بسم اللَّه الرحمن الرحيم من محمد عبد اللَّه ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلامٌ على من اتبع الهدى أما بعدُ؛ فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك اللَّه أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين و﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

قال أبو سفيان: فلما قال ما قال وفرغ من قراءة الكتاب، كثر عنده الصَّخب، وارتفعت الأصوات، وأُخرجنا، فقلت لأصحابي حين أخرجنا: لقد أَمِرَ أمرُ ابن ابي كبشة إنه يخافه ملك بني الأصفر، فما زلت موقنًا أنه يظهر حتى أدخل اللَّه عليَّ الإسلام. وكان ابن الناظور صحب إيلاء، وهرقل سُقُفًا على نصارى الشأم يحدث: أن هرقل حين قدم إيلياء أصبح يومًا خبيث النفس، فقال بعض بطارقته: قد استنكرنا هيئتك - قال ابن الناظور: وكان هرقل حزَّاءً ينظر في النجوم - فقال لهم حين سألوه: إني رأيت الليلة حين نظرت في النجوم ملك الختان قد ظهر، فمن يختتن من هذه الأمة؟ قالوا: ليس يختتن إلا اليهود، فلا يهمنك شأنهم، واكتب إلى مدائن ملكك، فيقتلوا من فيهم من اليهود، فبينما هو على أمرهم أتى هرقل برجلٍ أرسل به ملك غسَّان، يخبر عن خبر رسول اللَّه ﷺ، فلما استخبره هرقل قال: اذهبوا فانظروا امختتن هو أم لا؟ فنظروا إليه فحدثوه أنه مختتن، وسأله عن العرب فقال: هم يختتنون، فقال هرقل: هذا ملك هذه الأمة قد ظهر، ثم كتب هرقل إلى صاحبٍ له برومية، وكان نظيره في العلم، وسار هرقل إلى حمص، فلم يَرِمْ حمص حتى أتاه كتاب من

صاحبه يوافق رأي هرقل على خروج النبي ﷺ وأنه نبيٌّ فأذن هرقل لعظماء الروم في دسكرةٍ له بحمص، ثم أمر بأبوابها فغلقت، ثم اطلع فقال: يا معشر الروم هل لكم في الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبي؟ فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب، فوجودها قد غلقت، فلما رأى هرقل نفرتهم، وأيس من الإيمان قال: ردوهم عليَّ، وقال: إني قلت مقالتي آنفًا، أختبر بها شدتكم على دينكم، فقد رأيت، فسجدوا له ورضوا عنه، فكان ذلك آخر شأن هرقل[1].

فهرقل استدل بسيرته على صدقه، وشهد له بالصدق أبو سفيان رضي الله عنه الذي كان وقتها من ألدِّ أعداءه، فهو رأس قريش وقائدهم، وهذه الأسئلة وأجوبتها من أعظم الأدلة على صدق نبوة النبي ﷺ.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

---

(١) متفق عليه (البخاري: كتاب بدأ الوحي، رقم (٧)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب: كتاب النبي ﷺ إلى هرقل، رقم (١٧٧٣)).

كثرة زوجاته ﷺ

من لطيف الاستدلال - في هذا المقام - استدلال بعضهم لصدقه بزواجه لأكثر من تسع نسوة؛ ووجه ذلك أن الإنسان الكاذب قد يستطيع أن يتحرز من الناس في حياته الخارجية، بحيث لا يستطيع أحد أن يجد عليه كذبًا، لكن هذا لا يحصل للإنسان مع زوجته؛ فإن العادة جرت بسقوط الكلفة وانبساط الرجل مع أهله، وزوجته أعلم الناس بحاله، لكن لما كان احتمال أن هذه الزوجة تتواطأ مع زوجها في إخفاء كذبه؛ أُذن للنبي ﷺ أن يكثر من الأزواج، فالنبي ﷺ مع كثرة أزواجه لم تنقل إحداهن عن حياته الخاصة إلا كل كمال يمكن أن يوصف به إنسان، فلو أمكن أن تتواطأ واحدة، فإنه لا يمكن أن يتواطأن كلهن على ستر كذبه - وحاشاه - وإخفاء عيبه فهذا في غاية من البعد، لا سيما أن بعضهن كصفية بنت حيي بن أخطب، التي تزوجها بعد أن حارب قومها، وقتل منهم الكثير بل قتل زوجها وأباها وعمها، ثم سباها ثم أعتقها وتزوجها، وأم حبيبة كان متزوجًا بها وهو يحارب أباها أبا سفيان، وجويرية بنت الحارث كانت من سبايا بني المصطلق، ثم أعاناها على مكاتبتها وتزوجها[1]، ألم يكن لهؤلاء النسوة أكبر دافع للثأر منه، ولو بتشويه صورته بعد موته؟ بلى، ولكن كل هذا لم يحصل! فدل على صدق نبوته.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

---

(١) انظر في ترجمة أمهات المؤمنين: روائع البيان في تفسير آيات الأحكام من القرآن، لمحمد علي الصابوني (ص٣٠٧ - ٣١٦).

المطلب الثالث
خوارق العادات

- الآيات التي يجريها الله على يديه ﷺ يخرق فيها العادة.
- إحكام التشريع.
- الإعجاز العلمي.
- تأليف قلوب العرب.
- حادثة الفيل.

الآيات التي يجريها اللَّه على يديه ﷺ يخرق فيها العادة

ألف العديد من العلماء في دلائل ومعجزات النبي ﷺ، منهم: البيهقي وأبو نعيم وأبو بكر الفرياني وأبو حفص بن شاهين، وأعلام النبوة لأبي داود السجستاني، و«دلائل الرسالة» لأبي المطرف بن أسبغ القرطبي[١]، ومن المعاصرين: «الصحيح من معجزات النبي ﷺ» لخير الدين وائلي[٢]، «والصحيح المسند من دلائل النبوة» لمقبل بن هادي الوادعي[٣] وغيرهم، ومجموع هذه الأدلة تربو على الألف دليل[٤].

وهذه الآيات والمعجزات لا شك أنها حجة قاطعة على صدق رسالته ونبوته ﷺ؛ لأن خرق العادة ومخالفة قانون الطبيعة وتغير ناموس الحياة لا يمكن أن يفعله مخلوق، بل لا يكون إلا من الخالق للعادة ﷻ، واللَّه ﷻ لا يخرق العادة لكاذب، بل إنما يؤيد بها رسله للتدليل على صدقهم في دعوتهم، كما حصل من قلب النار بردًا وسلامًا على إبراهيم، وقلب عصى موسى إلى أفعى، وإحياء الموتى لعيسى، وغير ذلك من الآيات؛ لذلك كان القوم إذا أرسل إليهم أحد، أو ادعى النبوة قالوا: ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ﴾ [البقرة: ١١٨]، ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الأنعام: ٣٧]، ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾

---

(١) انظر: الرسالة المستطرفة للكتاني (ص٨٩)، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م.

(٢) إصدار دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م.

(٣) الناشر مكتبة ابن تيمية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٨٧م.

(٤) انظر: هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، لابن القيم (ص٨٧).

[الأنعام: ١٠٩]، ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [يونس: ٢٠].

من أنكر الآيات بعد أن رآها فهو في غاية من الكفر ومستحقٌ للعذاب؛ كما قال ﷻ عن صالح ﵇: ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هود: ٦٤].

وقال ﷻ: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وقال ﷻ: ﴿سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [البقرة: ٢١١]، يعني: أن رؤية هذه الآيات لا تُبقي لأحد حجة.

من هذه الآيات والمعجزات - غير معجزة القرآن التي سنتكلم عنها مفصلة:

١- خطاب الأشجار والأحجار وانقيادها للنبي ﷺ:

عن عبد الرحمن بن عبد اللّه بن مسعود ﵀ قال: سألت مسروقًا من آذن النبي ﷺ بالجن ليلة استمعوا القرآن؟ فقال: حدثني أبوك - يعني عبد اللّه - أنه آذنت بهم شجرة[(١)].

وعن جابر بن سمرة ﵁ قال: قال رسول اللّه ﷺ: «إني لأعرف حجرًا بمكة كان يسلم عليَّ قبل أن ابعث إني لأعرفه الآن»[(٢)].

---

(١) متفق عليه: البخاري، كتاب المناقب، باب: ذكر الجن، رقم (٣٦٤٦)، ومسلم، كتاب الصلاة، باب: الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن، رقم (٤٥٠).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الفضائل، باب: فضل نسب النبي ﷺ وتسليم الحجر، رقم (٢٢٧٧).

وعن أنس رضي الله عنه قال: جاء جبريل عليه السلام ذات يوم إلى رسول الله ﷺ وهو جالسٌ حزين، قد خضب بالدماء، قد ضربه بعض أهل مكة، فقال جبريل: محمد ما لك؟ قال: «فعل بي هؤلاء وفعلوا»، قال: أتحب أن أريك آية؟ قال: «نعم أرني»، فنظر إلى شجرة من وراء الوادي قال: ادعُ تلك الشجرة، فدعاها فجاءت تمشي حتى قامت بين يديه، قال: قل لها لترجع. فقال لها فرجعت حتى عادت إلى مكانها، فقال رسول الله ﷺ: «حسبي حسبي»[1].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: بم أعرف أنك نبيٌّ؟ قال: «إن دعوت هذا العذق من هذه النخلقة أتشهد أني رسول الله؟» فدعاه رسول الله ﷺ، فجعل ينزل من النخلة حتى سقط إلى النبي ﷺ، ثم قال: «ارجع»، فعاد، فأسلم الأعرابي[2].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: سرنا مع رسول الله ﷺ حتى نزلنا واديًا أفيح، فذهب رسول الله ﷺ يقضي حاجته، فاتبعته بإداوةٍ من ماءٍ، فنظر رسول الله ﷺ فلم ير شيئًا يستتر به، فإذا شجرتان بشاطئ الوادي، فانطلق رسول الله ﷺ إلى إحداهما، فأخذ بغصن من أغصانها، فقال: «انقادي عليَّ بإذن الله»، فانقادت معه كالبعير المخشوش - أي: الذي وضع فيه قيد - الذي يصانع قائده، حتى أتى الشجرة الأخرى فأخذ

---

(١) أخرجه أحمد رقم (١١٧٠٢)، وابن ماجه في كتاب الفتن، باب: الصبر على البلاء، رقم (٤٠٢٨)، وإسناده صحيح بشواهده. انظر: دلائل النبوة، للوادعي، (٩٦).

(٢) أخرجه الدارمي، في المقدمة في باب ما أكرم الله نبيه من إيمان الشجر به، رقم (٢٤)، والترمذي، كتاب المناقب، باب: في إثبات نبوة النبي ﷺ، رقم (٣٦٢٨)، واللفظ له وقال: حسن صحيح. وانظر: دلائل النبوة، للوادعي (٩٨).

بغصن من أغصانها، فقال: «انقادي عليَّ بإذن اللَّه»، فانقادت معه كذلك، حتى إذا كان المنصف مما بينهما لأم بينهما - يعني: جمعهما - فقال: «التئما عليَّ بإذن اللَّه». فالتأمتا، قال جابرٌ: فخرجت أُحْضِر[1] مخافة أن يحس رسول اللَّه ﷺ بقربي فيبعد، فجلست أحدث نفسي، فحانت مني لفتةٌ، فإذا أنا برسول اللَّه ﷺ مقبلاً، وإذا الشجرتان قد افترقتا، فقامت كل واحدةٍ منهما على ساقٍ[2].

٢- أدب الحيوان معه:

عن عبد اللَّه بن جعفر رضي الله عنه قال: أردفني رسول اللَّه ﷺ خلفه، فدخل حائطًا لرجل من الأنصار، فإذا فيه جمل، فلما رأى النبي ﷺ حنَّ وذرفت عيناه، وجاء إليه، فأتاه النبي ﷺ فمسح ذفراه فسكت، فقال: «من رب هذا الجمل، لمن هذا الجمل؟» فجاء فتىً من الأنصارى فقال: لي يا رسول اللَّه! فقال: «أفلا تتقي اللَّه في هذه البهيمة التي ملكك اللَّه إياها؛ فإنه شكاك إليَّ وزعم أنك تجيعه وتدئبه»[3].

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان أهل بيت من الأنصار لهم جمل يسنون[4] عليه، وإن الجمل استصعب عليهم، فمنعهم ظهره، وإن

---

(١) الحضر: الجري الشديد.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الزهد والرقاق، باب: حديث جابر الطويل وقصة أبي بسر، رقم (٣٠١٤).

(٣) أخرجه أبو داود، كتاب الجهاد، باب: ما يؤمر به من القيام على الدواب والبهائم، رقم (٢٥٤٩)، وأحمد رقم (١٧٤٧)، وهو صحيح على شرط مسلم، وأصله في مسلم من غير قصة الجمل.

(٤) يدير لهم السانية وهي الساقية.

الأنصار جاءوا إلى رسول اللَّه ﷺ فقالوا: إنه كان لنا جمل نسني عليه، وإنه استصعب علينا، ومنعنا ظهره، وقد عطش الزرع والنخل، فقال رسول اللَّه ﷺ لأصحابه: «قوموا» فقاموا، فدخل الحائط والجمل في ناحيته، فمشى النبي ﷺ نحوه، فقالت الأنصار: يا رسول اللَّه، إنه قد صار مثل الكلب الكَلِب[1]، وإنا نخاف عليك صولته، فقال: «ليس علي منه بأس» . فلما نظر الجمل إلى رسول اللَّه ﷺ أقبل نحوه، حتى خر ساجدا بين يديه، فأخذ رسول اللَّه ﷺ بناصيته أذل ما كانت قط، حتى أدخله في العمل. فقال له أصحابه: يا نبي اللَّه، هذه بهيمة لا تعقل تسجد لك ونحن نعقل، فنحن أحق أن نسجد لك، فقال: «لا يصلح لبشر أن يسجد لبشر، ولو صلح لبشر أن يسجد لبشر، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها، من عظم حقه عليها، والذي نفسي بيده، لو كان من قدمه إلى مفرق رأسه قرحة تنبجس بالقيح والصديد، ثم استقبلته تلحسه ما أدت حقه»[2].

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «كان لآل رسول اللَّه ﷺ وحشٌ[3]، فكان إذا خرج رسول اللَّه ﷺ اشتد ولعب في البيت، فإذا دخل رسول اللَّه ﷺ سكن فلم يتحرك كراهية أن يؤذيه»[4].

وأخرج الحاكم عن سفينة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مولى رسول اللَّه ﷺ قال: «ركبت البحر

---

(١) أي: المسعور.

(٢) أخرجه أحمد رقم (١٢٢٠٣)، وإسناده جيد. انظر: الدلائل، للوادعي (١٠٢)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب، رقم (١٩٣٦).

(٣) أخرجه أحمد، رقم (٢٤٢٩٧)، وسنده حسن. انظر: الدلائل، للوادعي (١٠٢).

(٤) وهو الحيوان البري الوحشي.

فانكسرت سفينتي التي كنت فيها، فركبت لوحًا من ألواحها فطرحني اللوح في أجمة[١] فيها الأسد، فأقبل يريدني، فقلت: يا أبا الحارث! أنا مولى رسول اللَّه ﷺ، فطأطأ رأسه، وأقبل إليَّ يدفعني بمنكبه حتى أخرجني من الأجمة ووضعني على الطريق، وهمهم فظننت أنه يودعني، فكان آخر عهدي به»[٢].

٣- تكثير الطعام:

عن جابر بن عبد اللَّه رضي الله عنهما قال: لما حُفر الخندق رأيت بالنبي ﷺ خمصًا شديدًا، فانكفأت[٣] إلى امرأتي، فقلت: هل عندك شيءٌ فإني رأيت برسول اللَّه ﷺ خمصًا شديدًا؟ فأخرجت إليَّ جرابًا فيه صاعٌ من شعيرٍ، ولنا بهيمةٌ داجن[٤] فذبحتها وطحنت الشعير، ففرغت إلى فراغي وقطعتها في برمتها، ثم وليت إلى رسول اللَّه ﷺ فقالت: لا تفضحني برسول اللَّه ﷺ وبمن معه، فجئته فساررته فقلت: يا رسول اللَّه! ذبحنا بهيمةً لنا وطحنا صاعًا من شعير كان عندنا، فتعال أنت ونفر معك. فصاح النبي ﷺ فقال: «يا أهل الخندق! إن جابرًا قد صنع سورًا فحيَّ هلا بهلكم». فقال رسول اللَّه ﷺ: «لا تنزلن برمتكم ولا تخبزن عجينكم حتى أجيء»، فجئت وجاء رسول اللَّه ﷺ يقدم الناس، حتى جئت امرأتي فقلت لها: ويحك جاء النبي بالمهاجرين والأنصار، فقالت: بك وبك.

---

(١) أجمة: غابة، انظر: لسان العرب (١/ ٦٥٦).

(٢) أخرجه الحاكم (٢/ ٦٧٥) دار الكتب العلمية، بيروت، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ١٩٩١م، والبخاري في التاريخ الكبير (٣/ ١٩٥)، طباعة دار الفكر، مراجعة السيد هاشم الندوي، وهو حسن. انظر: الدلائل، للوادعي (٢٩٩).

(٣) انكفأ: رجع، انظر: النهاية في غريب الحديث (٤/ ١٨٣).

(٤) داجن: هي الدابة التي تعلفها الناس في بيوتهم، انظر: لسان العرب (١٣/ ١٤٨).

فقلت: قد فعلت الذي قلت. فأخرجت له عجينًا فبصق فيه وبارك، ثم عمد إلى برمتنا فبصق وبارك، ثم قال: «ادع خابزةً فلتخبز معي واقدحي من برمتكم ولا تنزلوها». وهم ألف، فأقسم باللَّه لقد أكلوا حتى تركوه وانحرفوا، وإن برمتنا لتغط كما هي، وإن عجيننا ليخبز كما هو[١].

وعن قيس بن النعمان قال: لما انطلق النبي ﷺ وأبو بكر مستخفين مرّا بعبد يرعى غنمًا، فاستسقياه من اللبن، فقال: ما عندي شاة تحلب، غير أن ههنا عَنَاقًا[٢] حملت أول الشتاء، وقد أخدجت وما بقي لها لبن. فقال: «ادع بها، فدعا بها فاعتقلها النبي ﷺ، ومسح ضرعها ودعا حتى أنزلت». قال: وجاء أبو بكر رضي الله عنه بمحجن فحلب، فسقى أبا بكر، ثم حلب فسقى الراعي، ثم حلب فشرب، فقال الراعي: باللَّه من أنت، فواللَّه ما رأيت مثلك قط؟ قال: «أو تراك تكتم عليَّ حتى أخبرك؟». قال: نعم. قال: «فإني محمد رسول اللَّه». فقال: أنت الذي تزعم قريش أنه صابئ؟ قال: «إنه ليقولون ذلك». قال: فأشهد أنك نبي، وأشهد أن ما جئت به حق، وأنه لا يفعل ما فعلت إلا نبي، وأنا متبعك. قال: «إنك لا تستطيع ذلك يومك، فإذا بلغك أني قد ظهرت فأتنا»[٣].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتيتُ النبي ﷺ بتمرات، فقلت: يا رسول اللَّه

---

(١) متفق عليه (البخاري: كتاب المغازي، باب: غزوة الخندق وهي الأحزاب، رقم (٣٨٧٦)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم (٧٧١)).

(٢) العَنَاق: الأنثى من أولاد الماعز والغنم من حين الولادة إلى تمام حول. المعجم الوسيط (ع ن ق) (٢/ ٦٥٥).

(٣) أخرجه الحاكم (٣/ ٩)، والطبراني في المعجم الكبير (١٨/ ٣٤٣)، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، ١٩٨٣م، وسنده صحيح، انظر: الدلائل، للوادعي (١١١).

ادع اللَّه فيهنَّ بالبركة، فضمهن ثم دعا لي فيهن بالبركة، فقال: «خذهن واجعلن في مزودك هذا، أو في هذا المزود[١] كلما أردت أن تأخذ منه شيئًا، فأدخل فيه يدك فخذه ولا تنثره نثرًا»، فقد حملت من ذلك التَّمر كذا وكذا من وسق في سبيل اللَّه، فكنا نأكل منه ونطعم، وكان لا يفارق حقوي[٢]، حتى كان يوم قتل عثمان رضي الله عنه، فإنه انقطع[٣].

وعن قتادة عن أنس رضي الله عنه قال: أُتي النبي بإناء وهو بالزَّوراء، فوضع يده في الإناء، فجعل الماء ينبع من بين أصابعه، فتوضأ القوم، قال قتادة: قلت لأنس: كم كنتم؟ قال: ثلاث مائةٍ أو زُهاءَ ثلاثِ مائةٍ[٤].

وعن عبد اللَّه رضي الله عنه قال: كنا نعد الآيات بركة وأنتم تعدونها تخويفًا، كنا مع رسول اللَّه ﷺ في سفرٍ فَقَلّ الماء فقال: «اطلبوا فضلة من ماءٍ»، فجاءوا بإناءٍ فيه ماءٌ قليلٌ، فأدخل يده في الإناء ثم قال: «حيَّ على الطهور المبارك والبركة من اللَّه». فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول اللَّه ﷺ، ولقد كنا نسمع تسبيح الطَّعام وهو يؤكل[٥].

وتكثير الطعام والماء هو استحداث من عدم وهو الخلق، والخلق لا يستطيعه إلا اللَّه.

---

(١) المزود: ما يوضع فيه الزاد، والزاد الطعام، انظر: لسان العرب (٣/ ١٩٨).

(٢) الحَقْو: الخصر وهو موضع شد الإزار، انظر: النهاية في غريب الحديث (٥/ ٢٧٥)، والمعجم الوسيط (١/ ١٩٥) (ح ق ر).

(٣) أخرجه أحمد (٨٤١٤)، والترمذي، كتاب المناقب، باب: مناقب أبي هريرة رضي الله عنه، رقم (٣٨٣٩)، واللفظ له، وهو صحيح، انظر: الدلائل، للوادعي (١١٢).

(٤) متفق عليه: البخاري، كتاب المناقب، باب: علامات النبوة في الإسلام، رقم (٣٣٧٩)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب: في معجزات النبي ﷺ، رقم (٢٢٧٩).

(٥) أخرجه البخاري، كتاب المناقب، باب: علامات النبوة في الإسلام، رقم (٣٣٨٦).

٤- شفاء الأمراض على يديه:

في يوم خيبر دعا النبي ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكان أرمد فبصق في عينيه فبرئ(١).

وعن يزيد بن أبي عبيد، قال: رأيت أثر ضربةٍ في ساق سلمة ابن الأكوع، فقلت: يا أبا مسلم! ما هذه الضربة؟ فقال: هذه ضربةٌ اصابتني يوم خيبر، فقال الناس: أصيب سلمة، فأتيت النبي ﷺ فنفث فيه ثلاث نفثاتٍ، فما اشتكيتها حتى الساعة(٢).

وعبد اللَّه بن عتيك لما قتل أبا رافع انكسرت قدمه، فمسحها النبي ﷺ، فكأنها لم تشتك قط(٣).

٥- انشقاق القمر:

سأل أهل مكة النبي ﷺ آية، فدعا النبي ربه أن يشق القمر، فانشق القمر فلقتين، فلقة عن يمين الجبل والأخرى عن شماله، فقال النبي: «اشهدوا اشهدوا»، فقالوا: سحر أعيننا محمد. فقال بعضهم: إن محمدًا لا يستطيع أن يسحر الناس أجمعين، فاسألوا الركبان إذا جاؤوا من الأسفار. فكلما جاء أحد سألوه: هل رأيت القمر انشق؟ فيقولون: نعم رأينا(٤).

---

(١) متفق عليه (البخاري: كتاب المناقب، باب: مناقب علي بن أبي طالب رضي الله عنه، رقم (٣٤٩٨)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب: من فضائل علي بن أبي طالب، رقم (٢٤٠٦)).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب: غزوة خيبر، رقم (٣٩٦٩).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب: قتل أبي رافع، رقم (٣٨١٣).

(٤) متفق عليه من طريق ابن مسعود وأنس وابن عباس رضي الله عنهم:

- أخرجه البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه، كتاب المناقب، باب: سؤال المشركين أن يريهم =

٦- حنين الجذع:

كان مسجد النبي ﷺ مبينًا على جذوع من نخل، فكان النبي ﷺ إذا أراد أن يخطب يستند إلى أحد هذه الجذوع عادة، ومكث على هذه مدة، فلما كثر الناس واصبح المسجد يمتلئ بالمصلين، وكان الذين في الصفوف الأخيرة لا يرون النبي ﷺ لاسيما من النساء، فجاءت إحدى نساء الأنصار إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول اللّه! إن لي غلامًا نجارًا، فإن شئت أمرته ليصنع لك منبرًا. فأذن النبي ﷺ لها بذلك، فصنع للنبي منبرًا من ثلاث درجات، ووضعته في المسجد بجانب ذلك الجذع الذي كان النبي ﷺ يخطب إليه دائمًا، فلما خرج النبي ﷺ للخطبة، مرَّ بجانب ذلك الجذع ولم يخطب عنده، ورقى المنبر ليخطب عليه، فلما أحس الجذع أن النبي ﷺ تركه، حزن وجزع وأخذ يبكي ويصيح حتى كاد أن يتصدع حزنًا على رسول اللّه ﷺ، فقال النبي ﷺ: «ألا تعجبون لحنين هذه الخشبة؟» فأقبل الناس وارتج المسجد من حنينها حتى كثر البكاء في المسجد، فنزل النبي ﷺ فوضع يده عليها يهدهدها[1] ثم ضمها إليه، فجعلت تئن أنين الصبي الذي يُسكَت حتى سكتت، فقال النبي ﷺ: «أما

= آية، رقم (٣٤٣٧)، وعن أنس رضي الله عنه في الموضع السابق، رقم (٣٤٣٨)، وعن ابن عباس رضي الله عنهما، رقم (٣٤٣٩).

- وأخرجه مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه في كتاب صفة القيامة، باب: انشقاق القمر، رقم (٢٨٠٠)، وعن أنس رضي الله عنه، رقم (٢٨٠٢)، وابن عباس رضي الله عنهما، رقم (٢٨٠٣).

- وأخرجه الترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما، كتاب تفسير القرآن، باب: من سورة القمر، رقم (٣٢٨٨)، وعن جبير بن مطعم رضي الله عنه في الموضع السابق، رقم (٣٢٨٩)، وأخرجه غيرهم، وهو حديث متواتر.

(١) هَدْهَدَ الشيء: حرَّكه، ويقال: هدهدت الأمُ صبيها، حركته حركةً رفيقة منظمة لينام. انظر: المعجم الوسيط (٢/ ١٠١٧) (هدهد).

والذي نفس محمد بيده، لو لم أحتضنه لحن هكذا إلى يوم القيامة حزنًا على رسول اللَّه»، ثم أمر النبي ﷺ به فدفن تحت منبره، يقول جابر رضي الله عنه : بكت على ما كانت تسمع من الذكر(١).

٧- **عقوبة من خادع النبي ﷺ:**

عن أنس رضي الله عنه قال: كان رجلاً نصرانيًا فأسلم، وقرأ البقرة وآل عمران، فكان يكتب للنبي ﷺ، فعاد نصرانيًا ولحق بأهل الكتاب، فعظموه ورفعوه وقالوا: هذا رجل يكتب لمحمد فأعجبوا به، فكان يقول: ما يدري محمد إلا ما كتبت له. فما لبث أن قصم اللَّه عنقه ومات، فدفنوه فأصبح وقد لفظته الأرض، فقالوا: هذا فعل محمد وأصحابه، لما هرب منهم نبشوا عن صاحبنا فألقوه. فحفروا له فأعمقوا، فأصبح وقد لفظته الأرض، فقالوا: هذا فعل محمد وأصحابه نبشوا عن صاحبنا لما هرب منهم فألقوه، فحفروا له وأعمقوا له في الأرض ما استطاعوا، فأصبح وقد لفظته الأرض، فعلموا أنه ليس من الناس فألقوه(٢).

وغير ذلك من الأدلة والآيات والبراهين والمعجزات على صدقه ﷺ وتأييد اللَّه ﷻ له(٣).

ولكن قد يقول قائل: إن كل هذه المعجزات من الأمور السابقة التي لم

---

(١) أخرجه البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما، كتاب المناقب، باب: علامات النبوة في الإسلام، رقم (٣٣٩٠)، وعن جابر رضي الله عنه في الموضع السابق، رقم (٣٣٩٢)، وأخرجه الترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما: كتاب الجمعة، باب: ما جاء في الخطبة على المنبر، رقم (٥٠٥)، ثم قال: وفي الباب عن أنس وجابر وسهل بن سد وأبي بن كعب وابن عباس وأم سلمة.

(٢) متفق عليه: البخاري، كتاب المناقب، باب: علامات النبوة في الإسلام، رقم (٣٤٢١)، ومسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، رقم (٢٧٨١).

(٣) وقد أنكر بعض المعاصرين هذه المعجزات وقد أفردت الرد عليهم بملحق في آخر هذه الرسالة.

نرها، ونحن نريد معجزة حاضرة نشاهدها بأعيننا الآن؟ فهل بقي من هذه المعجزات معجزة باقية إلى عصرنا الحضر.

الجواب: نعم، هناك ثلاث آيات عظيمة:

المعجزة الأولى: القرآن الكريم، وأوجه إعجاز القرآن كثيرة جدًا، ولكن يمكن إجمالها بأربعة أوجه:

١) الإجاز البياني.

٢) الإعجاز الغيبي.

٣) الإعجاز التشريعي.

٤) الإعجاز العلمي.

وفي كل وجه من هذه الوجوه أُلِّفت مؤلفات كثيرة، ولا يسع المقام لذكرها، ولعلنا نفردها في كتاب إذا يسر اللَّه وأعان.

المعجزة الثانية: السنة النبوية، وأوجه الإعجاز فيها كثيرة، ومنها: الإعجاز العلمي الذي لم يكتشف إلا في عصرنا الحاضر، وعدد الأحاديث التي فيها إعجاز علمي كثيرة جدًا حتى إنه أقيمت لذلك الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة التابعة لرابطة العالم الإسلامي، ومجالات الإعجاز العلمي فيها كثيرة كالطب وعلومه وعلوم الفلك والفضاء وعلوم الأرض والبحار وغير لك من المجالات، وتجاوز عدد البحوث الآلاف، ومثل هذا لا يمكن الاطلاع عليه في ذلك الزمن إلا عن طريق الوحي، وسنفرد لها بحثًا إن شاء اللَّه.

المعجزة الثالثة: ماء زمزم؛ وأوجه الإعجاز في زمزم كثيرة، منها:

١) طول مدتته: فقد حفر في زمن الخليل إبراهيم عليه السلام، والآبار عادة لا

تزيد أعمارها عن خمسين سنة ثم تُنزح.

٢) كثرة مائه: فهو يتدفق وينضح بصورة لا تعرف في الآبار الأخرى.

٣) كثرة الشاربين منه: قد يقول قائل: إن كثرة مائه لقلّة الشاربين منه.

فالجواب: إنه لا يوجد بئر في العالم يشرب منه عدد من الناس كبئر زمزم، فعدد الحجاج كل سنة يتجاوز ثلاثة ملايين، والمعتمرون في رمضان قريب من هذا العدد، والزائرون للحرم المكي على مدار العام يتجاوز هذا العدد، وكل منهم يشرب منه وينقل إلى دياره، ويُنقل منه كل يوم إلى الحرم المدني، والآن أقيمت شركات لتعبئته وتصديره على مستوى العالم، ومع هذا النزح الهائل منه لا يزداد إلا كثرة.

٤) مخالفته للطبيعة: فالآبار لا تخرج في الأراضي الصخرية والجبلية.

٥) شدة حرارة المنطقة: فمكة من أكثر دول العالم حرارة على طوال العام، ومثل هذا الجو لا يُمكِّن الآبار من طول المكث، بل يسارع في تبخيرها.

٦) عدم وجود مصادر له: فليس هناك أنهار قريبة أو بحار، ومكة شحيحة الأمطار، ومع هذا ماؤه لا ينضب.

٧) شفاؤه للأمراض: كان ﷺ يحمل ماء زمزم في الأداوى والقِرب وكان يصب على المرضى ويسقيهم[1]. ويقول ﷺ عنه: «شفاء سقم» كما سيأتي، وشفاؤه للأمراض تواتر حتى وصل حد اليقين عند المسلمين.

---

(١) السلسلة الصحيحة، للألباني (٢/ ٥٧٢).

٨) استغناء شاربها عن الطعام: ففي حديث أبي ذر ﵁ في قصة إسلامه كما في صحيح مسلم، قال ﷺ: «متى كنت هاهنا؟» قال: قلت: قد كنت هاهنا منذ ثلاثين بين ليلة ويوم، قال: «فمن كان يطعمك؟» قال: قلت: ما كان لي طعامٌ إلا ماء زمزم فسمنت حتى تكسرت عكن بطني وما أجد على كبدي سخفة جوع. قال: «إنها مباركةٌ إنها طعام طعم»(١).

وعن ابن عباس ﵄ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «خير ماء على وجه الأرض ماء زمزم، فيه طعام من الطعم وشفاء من السقم، وشر ماء على وجه الأرض ماء بوادي برهوت بقية حضرموت كرجل الجراد من الهوام، يصبح يتدفق ويمسي لا بلال بها»(٢).

وعن ابن عباس ﵄ قال: كنا نسميها شباعة (يعني: زمزم) وكنا نجدها نِعْم العون على العيال(٣).

وقال ابن القيم(٤) ﵀ عقب حديث جابر ﵁: «وقد جربت أنا وغيري من الاستشفاء بماء زمزم أمورًا عجيبة واستشفيت به من عدة أمراض فبرئت بإذن اللَّه، وشاهدت من يتغذى به الأيام ذوات العدد قريبًا من نصف الشهر أو أكثر ولا يجد جوعًا ويطوف مع الناس كأحدهم وأخبرني أنه ربما بقي عليه أربعين يومًا وكان له قوة يجامع بها أهله ويصوم ويطوف مرارًا».

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب: من فضائل أبي ذر ﵁، رقم (٢٤٧٣).
(٢) السلسلة الصحيحة، للألباني (٣/ ٤٥).
(٣) السلسلة الصحيح، للألباني (٦/ ٤١٩).
(٤) في زاد المعاد (٣/ ١٩٢)، المطبعة المصرية.

٩) استجابة دعوة من شربه:

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ماء زمزم لما شرب له»[١].

قال ابن حجر رحمه الله: «وقد وقع في مسلم من حديث أبي ذر رضي الله عنه: «أنها طعام طعم»، زاد الطيالسي من الوجه الذي أخرجه منه مسلم: «وشفاء سقم»، وفي المستدرك من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا: «ماء زمزم لما شرب له»»[٢].

وكان أئمة السلف يعملون بمعنى هذا الحديث، فعن سويد بن سعيد رضي الله عنه قال: رأيت عبد الله بن المبارك بمكة أتى ماء زمزم واستسقى منه شربة ثم استقبل الكعبة فقال: اللّهم إن ابن أبي الموالي حدثنا عن محمد

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (مسند المكثرين) رقم (١٤٤٣٥)، وابن ماجه، كتاب المناسك، باب: الشرب من زمزم، رقم (٣٠٦٢)، وصححه الألباني في إرواء الغليل (٤/ ٣٢٠)، وانظر: إزالة الدهش والوله عن المتحير في صحة حديث ماء زمزم لما شرب له، لمحمد بن إدريس القادري، تحقيق: زهير الشاويش، تخريج: محمد ناصر الدين الألباني، طبعة المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

(٢) ثم قال ابن حجر: «رجاله موثقون، إلا أنه اختلف في إرساله ووصله وإرساله أصح، وله شاهد من حديث جابر، وهو أشهر منه أخرجه الشافعي وابن ماجه ورجاله ثقات إلا عبد الله بن المؤمل المكي فذكر العقيلي أنه تفرد به، لكن ورد من رواية غيره عند البيهقي من طريق إبراهيم بن طهمان ومن طريق حمزة الزيات كلاهما عن أبي الزبير بن سعيد عن جابر، ووقع في «فوائد ابن المقري» من طريق سويد بن سعيد عن ابن المبارك عن ابن أبي الموالي عن ابن المنكدر عن جابر، وزعم الدمياطي أنه على رسم الصحيح وهو كما قال من حيث الرجال إلا أن سويداً وإن أخرج له مسلم فإنه خلط وطعنوا فيه وقد شذ بإسناده، والمحفوظ عن ابن المبارك عن ابن المؤمل، وقد جمعت في ذلك جزءاً، والله أعلم» انظر: فتح الباري: (٥/ ٣٠٢).

ابن المنكدر عن جابر أن رسول اللّه ﷺ قال: «ماء زمزم لما شرب له»، وهذا أشربه لعطش يوم القيامة ثم شرب[1].

وأخرج الدينوري في (المجالسة) من طريق الحميدي قال: كنا عند ابن عيينة فجاء رجل فقال: يا أبا محمد! الحديث الذي حدثنا عن ماء زمزم صحيح؟ قال: نعم، قال: فإني شربته الآن لتحدثني مائة حديث، فقال: اجلس فحدثه مائة حديث[2].

وهو مجرب ولا زال الناس يدعون عنده فيستجاب لهم.

* * * * *

---

(١) الترغيب والترهيب، للمنذري، كتاب الحج (١/ ١٨٨).

(٢) انظر: إرواء الغليل، للألباني (٤/ ٣٣٠)، وضعف القصة.

إحكام التشريع

لا يوجد قانون في الإحكام والتنظيم مثل التشريع الذي جاء به النبي ﷺ، فإن شريعته جاءت لتسد حاجة الإنسان في كل نواحي الحياة، وتبين الحكم في كل ما يحتاجه الإنسان، وتنظم حياة المسلم من ولادته إلى موته؛ تسير معه جنبًا إلى جنب، ترعاه وتحضنه وتُقوّمه وتسدده وتبصره وتهديه ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٧]، شريعة كاملة، فيها من اللين واليسر والموافقة للعقل ما يجعل كل من يلتزم بها سعيدًا فخورًا، وفيها من المرونة ما يجعلها تصلح لكل زمان ومكان وأمة، لا تميز بين الناس في الأحكام، فالعدل أساسها والحكمة نبراسها[١].

على حين لا تجد هذا في أي شريعة وقانون وضعي، ويعرف هذا حق معرفته القانونيون والمطلعون على القانون الوضعي، فهو يعدل في كل سنة عدة مرات، والقانون لو نجح في بلد فإنه قد لا ينجح في بلد أخرى، ولو صلح في وقت فقد يكون وبالاً في وقت آخر، وانظر ماذا فعلت الشيوعية الحمراء[٢] بأهلها التي لم يلتزم بها من التزم إلا بعد جريان أنهار الدم، واستخدام أبشع أنواع التعذيب، ثم سقطت إلى الهاوية وألقيت في مَزْبلة التاريخ غير مأسوف عليها.

ولم يستطع أحد أن يأتي بشريعة تخدم الإنسان في جميع شؤون حياته،

---

(١) انظر: المستشرقون وشبهاتهم حول القرآن، للحكيم (ص٤٧).

(٢) القرآن وإعجازه التشريعي، لمحمد إسماعيل إبراهيم (ص٣١)، دار الفكر العربي، القاهرة.

فقصارى جهد من وضعها أن تكون فكرة في مجال معين؛ ففي الاقتصاد برزت الاشتراكية والرأسمالية الربوية، فالأولى قتلت الإبداع وساوت بين النشيط والخامل، وبين المضحي واللامبالي، والذكي والغبي[١]. والأخرى جعلت شعوبها شعوبًا طبقية ما بين كل طبقة وطبقة مفاوز، فبعض الطبقات طبقة مسحوقة لا تجد قوت يومها، وبعضهم يتمتعون بكل متاع الدنيا، وليس على هؤلاء حق لأولئك[٢].

وفي السياسة برزت الديمقراطية والدكتاتورية، فالأولى[٣] فتحت الباب على مصراعيه للرأي وأطلقت الحريات بلا عنان، وجعلت الحكم للشعب على اختلاف مستواه التعليمي والفكري، وعلى حسب مصلحته الخاصة، طارحة أي حكم شرعي وغير مبالية فيه، فحكم الناس يقدم على حكم رب الناس، والأخرى[٤] جعلت الحكم محصورًا بشخص واحد ولا يحق لأحد التدخل مهما بلغ من الثقافة والعلم.

وفي الجانب الاجتماعي فتحوا باب الخنا والزنا على مصراعيه كما قال فرويد: إن الغريزية الجنسية هي أساس كل تصرفات الإنسان حتى الرضيع مع أمه، وأي كبت لهذه الغريزة يؤدي إلى الانهيار والأزمات النفسية[٥].

وغيرها من الأفكار والمذاهب التي لا يسع المجال لذكرها.

---

(١) القرآن والسنة والعلوم الحديثة، لمحمد أحمد مدني (ص١٠١)، مبحث الماركسية وتناقضاتها.

(٢) انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة (٢/ ٩٢٠).

(٣) انظر: السابق (٢/ ١٠٦٦).

(٤) انظر: السابق (٢/ ٩٢٩).

(٥) انظر: العلمانية، للشيخ سفر الحوالي (ص١٦٤).

وهذه القوانين مع كثرة الواضعين لها والمنقحين والمراجعين والمصححين إلا أنها لا زالت تتغير يومًا بعد يوم، فمن وضعها غير راضٍ عنها فضلاً عن غيره.

وكل هذه الأفكار والمذاهب والتشريعات والقوانين على اختلاف مجالاتها كان منتهي قدراتها مجتمعة أن تخدم بدن الإنسان وجسمه، ولم تستطع أن تقدم للروح شيئًا، فكان غاية ما عندها أن تقول للناس: ليتخذ كل منكم الدين الذي يريد، فإننا لا نعرف كيف تسعد الروح، فصُدرت دساتيرهم بكلمة «نحن دولة علمانية».

فكل هذه العقول لم تستطع أن تأتي بشريعة خالدة شاملة لجميع نواحي الحياة كما أتى به النبي ﷺ في شريعته، وهذا من أدلة صدقه ﷺ، فالبشر لا يقدرون على هذا، ولا حتى النبي ﷺ يقدر على ذلك، إنما هذه الشريعة تنزيل من عزيز حميد، شريعة لا يأتيها الباطل من بين أيديها ولا من خلفها تنزيل من حكيم حميد.

يقول برناردشو[1]: «لو كان محمد - نبي الإسلام - حيًا يرزق لاستطاع أن يحل مشاكل العالم وهو جالس على حصيرته يحتسي القهوة»[2].

وهذا مما استدل به هرقل أيضًا على صدق النبي ﷺ حين قيل له: إن شريعته تأمر بعبادة اللَّه وحده والصدق وصلة الرحم.

---

(١) برناردشو: المفكر والأديب والفيلسوف الإنكليزي المشهور، ولد برناردوشو في دبلن عاصمة أيرلندا في ٢٦ يوليو ١٨٥٦م، وكان أبواه من البروتستانت ذوي الأصل الإنجليزي، كان نهماً في القراءة بشكل غير عادي وكثيراً ما كان يتحف رفاقه التلاميذ بقصص من الإلياذة والأوديسة التي كان يحفظها عن ظهر قلب.

(٢) القرآن والسنة والعلوم الحديثة، لمحمد أحمد مدني، (ص٧١)، مطابع خالد للأوفست، الرياض.

الإعجاز العلمي

وأقصد به أخبار النبي ﷺ بحقائق علمية في عدة مجالات في وقت لم يكن أحد يعرف معناها، ولم تعرف إلا بعد ذلك، فوجه الدليل إخباره ﷺ بها قبل أن يعرف عنها أحد وظهور الأمر كما أخبر ﷺ.

وقد أُلِّفت في هذا مؤلفات كثيرة، تبين مدى الإعجازات العلمية الدقيقة التي تكلم عنها النبي ﷺ قبل أربعة عشر قرنًا، ولم نعرف معناها إلا الآن في هذا القرن، فمن ذلك ما ألفه الدكتور مختار سالم بعنوان «الإبداعات الطبية لرسول الإنسانية»(١)، ذكر فيها أنواعًا كثيرة من العلاجات النبوية لأمراض بعضها لم يعرف له دواء إلى الآن، وكيف أن النبي ﷺ أخبر بخروج طاعون العصر (الإيدز)؛ كما في حديث عبد اللَّه بن عمر رضي الله عنهما قال: أقبل علينا رسول اللَّه ﷺ فقال: «يا معشر المهاجرين خمس إذا ابتليتم بهن وأعوذ باللَّه أن تدركوهن؛ لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا. . .»(٢).

وفي الصحيحين(٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا ولغ

---

(١) طبعته مؤسسة المعارف في بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م.

(٢) أخرجه ابن ماجه، كتاب الفتن، باب: العقوبات، رقم (٤٠١٩)، وهو حديث حسن، انظر: صحيح سنن ابن ماجه، للألباني (٢/ ٣٧٠)، رقم (٣٢٤٦)، والسلسلة الصحيحة (١/ ٢١٦)، رقم (١٠٦).

(٣) متفق عليه (البخاري: كتاب الوضوء، باب: الماء الذي يغسل به شعر الإنسان، رقم (١٦٧)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب: حكم ولوغ الكلب، رقم (٤٢١)).

الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبعًا إحداهن في التراب» فقد ثبت طبيًا أن لسان الكلب يحمل فطريات ضارة جدًا بالإنسان، وهذه الفطريات لا تزول ولا تقتل إلا بالتراب مع الماء[(١)].

وفي صحيح البخاري[(٢)] أيضًا أن النبي ﷺ قال: «إذا سقط الذباب في إناء أحكم فليغمسه، فإن في أحد جناحيه داء وفي الآخر دواء».

وأثبتت التجارب الطبية أن الذبابة تحمل في أحد جناحيها جراثيم مضرة، وفي الآخر فطريات تقتل هذه الجراثيم[(٣)].

وغير ذلك من أنواع الإعجاز وألوانه التي يطول المجال في ذكرها، وهذا يدل على أن النبي ﷺ لا يقول هذا من عند نفسه بل من الوحي.

* * * * *

(١) انظر: القرآن والسنة في العلوم الحديثة (ص٦٩).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الطب، باب: إذا وقع الذباب في الإناء، رقم (٥٣٣٦).

(٣) انظر: معجزات في الطب للنبي العربي محمد ﷺ، تأليف الطبيب محمد سعيد السيوطي (ص٦٤)، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٦م.

تأليف قلوب العرب

لقد كان العرب قبل الإسلام قبائل متنازعة متناحرة، لا همَّ لها إلا المفاخرة والتعالي على بعض، تشتعل الحرب بينهم لأتفه الأسباب، وقد تستمر الحرب بينهم لعشرات السنوات لأجل ناقة - على سبيل المثال - كما حصل في حرب البسوس التي استمرت أربعين سنة بين تغلب وبكر ابني وائل؛ لأن كليب بن ربيعة التغلبي قتل ناقة البسوس خالة جساس بن مرة الكلبي[١].

وحرب داحس والغبراء التي كانت بين قبيلتي عبس وذبيان، لخلاف على سباق بين فرسين - وهما داحس والغبراء - واستمرت هذه الحرب أربعين سنةً أيضًا، وشارك في بعض حروبها عنتر، وذكرها زهير بن أبي سلمى في معلقته[٢]، والحرب بين الأوس والخزرج مع أنهم أبناء عم استمرت أكثر من مائة سنة.

فهذه النفوس كان فيها من الأنفة، وعدم الرضا بالضيم والحمية القبلية والقتال على أتفه الأسباب، والتي كانت تجعل النهب والقتل من أعظم سبل كسب الرزق والمفاخرة بالظلم، مما يجعلها أصعب ما يكون للاتحاد وجمع الكلمة، فالقدرة على جمع كلمة العرب قاطبة بقبائلها المتنافرة، وإسقاط ما في نفوس بعضهم لبعض من البغض والثأر من

---

(١) المعجم المفصل في الأدب، د. محمد التونجي (١/ ١٨٧)، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م.

(٢) المصدر السابق (٢/ ٤٣٠).

رجل واحد؛ أمرٌ معجز حقًا، قال تعالى ممتنًا على هذه الأمة بهذه النعمة ومبينًا أنه من فعله وليس من فعل أحد من البشر: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال ﷺ مبينًا صعوبة تأليف القلوب: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٢ - ٦٣]، فكانوا بعد هذا التآلف قوة ضاربة أسقطت فارس والروم، وقد تلمح بعض الشعراء هذا المعنى فقال:

هل تطلبون من المختار معجزة ... يكفيه شعب من الأجداث أحياهُ

فكانوا يدًا في الحرب واحدة ... من خاضها باع دنياه بأخراهُ

* * * * *

حادثة الفيل

من أعظم الحوادث التاريخية التي حصلت للعرب في الجزيرة العربية حادثة حماية الكعبة من جيش أبرهة الذي تقوده الفيلة، وهذه الحادثة متواترة، يذكرها كل من تكلم عن التاريخ في الجزيرة، بل حتى عندما ذكرها اللَّه تعالى في كتابه لم ينكرها كفار مكة الذي كانوا أحرص الناس على تكذيب القرآن، وهم أعلم الناس بتاريخ مدينتهم، مما يدل على قطعية حصولها.

قال الإمام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «فصل: ومن آيات محمد ﷺ ودلائل نبوته التي في القرآن قصة الفيل؛ قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل: ١ - ٥]، وقد تواترت قصة أصحاب الفيل وأن أهل الحبشة النصارى ساروا بجيش عظيم معهم فيل؛ ليهدموا الكعبة لما أهان بعض العرب كنيستهم التي باليمن فقصدوا إهانة الكعبة وتعظيم كنايسهم، فأرسل اللَّه عليهم طيرًا أهلكهم، وكان ذلك عام مولد النبي ﷺ، وكان جيران البيت مشركين يعبدون الأوثان، ودين النصارى خير من دينهم؛ فعلم بذلك أن هذه الآية لم تكن لأجل جيران البيت حينئذ، بل كانت لأجل البيت أو لأجل النبي ﷺ الذي ولد به في ذلك العام عند البيت، أو لمجموعهما، وأي ذلك كان فهو من دلائل نبوته فإنه إذا قيل: إنما كانت آية للبيت وحفظًا له وذبًّا عنه؛ لأنه بيت اللَّه الذي بناه إبراهيم الخليل، فقد عُلم أنه ليس من أهل الملل من يحج إلى

هذا البيت ويصلي إليه إلا أمة محمد ﷺ، ومحمد هو الذي بلَّغ فرض حجه والصلاة إليه، فإذا كان هذا البيت عند اللَّه خيرًا من الكنائس التي للنصارى حتى إن اللَّه أهلك النصارى أهل الكنائس لما أرادوا تعظيم الكنائس وإهانة البيت؛ علم أن دين أهل هذا البيت خير من دين النصارى، والمشركون ليسوا خيرًا من النصارى، فتعين أن أمة محمد ﷺ خير من النصارى، وذلك يستلزم أن نبيهم صادق وإلا فمن كانوا متبعين لنبي كاذب فليسوا خيرًا من النصارى بل هم شرار الخلق كأتباع مسيلمة الكذاب والأسود العنسي وغيرهما»[١].

* * * * *

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، لشيخ الإسلام ابن تيمية (٦/ ٥٥).

المَطْلَبُ الرَّابِعُ
الإِخْبَارُ بِالغَيْبِ

- جَوَابُهُ الحَاضِرُ عَلَى أَسْئِلَةِ المُشَكِّكِينَ.
- إِخْبَارُهُ بِالغَيْبِ.
- إِخْبَارُهُ بِالنِّهَايَاتِ فِي البِدَايَاتِ.
- الوَصْفُ الدَّقِيقُ لِلْغَيْبِ.

جوابه الحاضر على أسئلة المشككين

من أدلَّة صدق النبي ﷺ جوابه الحاضر على الأسئلة المفاجئة التي يواجهه بها المشككون في صدقه، ولا يتأتى ذلك لشخص كاذب مهما أوتي من فطنة، بل لا يصدر إلا عن نبي مؤيد بوحي من السماء، فمن أمثلة ذلك:

ما جاء عن أنس رضي الله عنه قال: سمع عبد اللَّه بن سلام رضي الله عنه بقدوم رسول اللَّه ﷺ، وهو في أرضٍ يخْتَرِفُ، فأتى النبي ﷺ، فقال: إني سائلك عن ثلاثٍ لا يعلمهن إلا نبيٌّ، فما أولُ أشراط الساعة؟ وما أول طعام أهل الجنة؟ وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه؟ . . . الحديث السابق[١].

وعن ثوبان رضي الله عنه مولى رسول اللَّه ﷺ قال: كنت قائمًا عند رسول اللَّه ﷺ فجاء حبرٌ من أحبار اليهود فقال: السلام عليك يا محمد. فدفعته دفعةً كاد يصرع منها فقال: لم تدفني؟ فقلت: ألا تقول يا رسول اللَّه؟ فقال اليهودي: إنما ندعوه باسمه الذي سماه به أهله. فقال رسول اللَّه ﷺ: «إن اسمي محمدٌ الذي سماني به أهلي»، فقال اليهودي: جئت أسألك. فقال له رسول اللَّه ﷺ: «أينفعك شيءٌ إن حدثتك؟» قال: أسمع بأذني. فنكت رسول اللَّه ﷺ بعودٍ معه، فقال: «سَلْ». فقال اليهودي: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات؟ فقال رسول اللَّه ﷺ: «هم في الظلمة دون الجسر»، قال: فمن أول الناس إجازة؟ قال: «فقراء المهاجرين»، قال اليهودي: فما تحفتهم حين يدخلون الجنة؟ قال: «زيادة كبد النون»، قال: فما غذاؤهم على إثرها؟ قال: «ينحر لهم ثور الجنة

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب: من كان عدواً لجبريل، رقم (٤٢١٠).

الذي كان يأكل من أطرافها»، قال: فما شرابهم عليه؟ قال: «من عين فيها تسمى سلسبيلاً»، قال: صدقت. قال: وجئت أسألك عن شيء لا يعلمه أحدٌ من أهل الأرض، إلا نبيٌّ أو رجلٌ أو رجلان. قال: «ينفعك إن حدثتك؟»، قال: أسمع بأذني. قال: جئت أسألك عن الولد؟، قال: «ماءُ الرجل أبيض وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعا فعلا منيُ الرجل مني المرأة أذْكَرَا بإذن اللَّه، وإذا علا منيُ المرأة منيَّ الرجل آنثَا بإذن اللَّه»، قال اليهوديُّ: لقد صدقت وإنك لنبي، ثم انصرف فذهب فقال رسول اللَّه ﷺ: «لقد سألني هذا عن الذي سألني عنه، وما لي علمٌ بشيء منه حتى أتاني اللَّه به»[1].

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: حضرت عصابةٌ من اليهود نبيَّ اللَّه ﷺ يومًا، فقالوا: يا أبا القاسم حدثنا عن خلالٍ نسألك عنهن، لا يعلمهن إلا نبيٌّ قال: «سلوني عمَّا شئتم، ولكن اجعلوا لي ذمة اللَّه، وما أخذ يعقوب عليه السلام على بنيه، لئن حدثتكم شيئًا فعرفتموه لتتابعني على الإسلام». قالوا: فذلك لك. قال: «فسلوني عما شئتم»، قالوا: أخبرنا عن أربع خلالٍ نسألك عنهن، أخبرنا أيُ الطعام حرَّمَ إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة؟ وأخبرنا كيف ماءُ المرأةِ وماءُ الرجل كيف يكون الذكرُ منه؟ وأخبرنا كيف هذا النبيُ الأميُ في النوم، ومن وليُّه من الملائكة؟ قال: «فعليكم عهد اللَّه وميثاقه لئن أنا أخبرتكم لتتابعني»، قال: فأعطوه ما شاء من عهدٍ وميثاقٍ. قال: «فأنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى ﷺ هل تعلمون أنَّ إسرائيل يعقوب عليه السلام مرض مرضًا شديدًا، وطال سقمه، فنذر للَّه نذرًا لئن شفاه اللَّه تعالى من سقمه ليحرِّمنَّ أحبَّ الشراب إليه وأحب

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الحيض، باب: بيان صفة مني الرجل والمرأة، رقم (٣١٥).

الطعام إليه، وكان أحبَّ الطعام إليه لحمان الإبل وأحبُّ الشراب إليه ألبانها؟» قالوا: اللَّهم نعم. قال: «اللَّهم أشهد عليهم، فأنشدكم باللَّه الذي لا إله إلا هو الذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن ماء الرجل أبيض غليظ، وأن ماء المرأة أصفر رقيق، فأيهما علا كان له الولد والشبه بإذن اللَّه، إن علا ماء الرجل على ماء المرأة كان ذكرًا بإذن اللَّه، وإن علا ماء المرأة على ماء الرجل كان أنثى بإذن اللَّه؟»، قالوا: اللَّهم نعم. قال: «اللَّهم أشهد عليهم، فأنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن هذا النبي الأميَّ تنام عيناه ولا ينام قلبُهُ؟»، قالوا: اللَّهم نعم. قال: «اللَّهم أشهد»، قالوا: وأنت الآن فحدثنا مَن وليُّك مِن الملائكة فعندها نجامعك أو نفارقك؟ قال: «فإنَّ وليَ جبريل عليه السلام ولم يبعث اللَّه نبيًا قط إلا وهو وليه»، قالوا: فعندها نفارقك؟ لو كان وليك سواه من الملائكة لتابعناك وصدقناك. قال: «فما يمنعكم من أن تصدقوه»، قالوا: إنه عدونا، قال: فعند ذلك قال اللَّه عز وجل: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠١]، فعند ذلك باءوا بغضبٍ على غضبٍ[(١)].

وفي رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أقبلت يهود إلى رسول اللَّه ﷺ، فقالوا: يا أبا القاسم إنا نسألك عن خمسة أشياء، فإن أنبأتنا بهنَّ عرفنا أنك نبيٌّ واتبعناك، فأخذ عليهم ما أخذ إسرائيل على بنيه إذ قالوا: اللَّه على ما نقول وكيلٌ، قال: «هاتوا»، قالوا: أخبرنا عن علامة النبي؟ قال: «تنام عيناه ولا ينام قلبه»، قالوا: أخبرنا كيف تؤنث المرأة وكيف تذكر؟

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢٥١٠) وهو حسن، وصححه الشيخ أحمد شاكر، برقم (٢٥١٤).

قال: «يلتقي الماءان؛ فإذا علا ماء الرجل ماء المرأة أذكرت، وإذا علا ماء المرأة آنثت»، قالوا: أخبرنا ما حرَّم إسرائيل على نفسه؟ قال: «كان يشتكي عرق النسا، فلم يجد شيئًا يلائمه إلا ألبان الإبل فحرم لحومها»، قالوا: صدقت، قالوا: أخبرنا ما هذا الرعد؟ قال: «ملك من ملائكة اللَّه عز وجل موكلٌ بالسحاب، بيده أو في يده مخراق من نار يزجر به السحاب، يسوقه حيث أمر اللَّه»، قالوا: فما هذا الصوت الذي يسمع؟ قال: «صوته»، قالوا: صدقت، إنما بقيت واحدةٌ وهي التي نبايعك إن أخبرتنا بها، فإنه ليس من نبي إلا له ملك يأتيه بالخبر، فأخبرنا من صاحبك؟ قال: «جبريل عليه السلام»، قالوا: جبريل ذاك الذي ينزل بالحرب والقتال والعذاب عدونا، لو قلت ميكائيل الذي ينزل بالرحمة والنبات والقطر لكان. فأنزل اللَّه عز وجل: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ [البقرة: ٩٧] إلى آخِر الآية[١].

فلو كان النبي ﷺ رجلًا كاذبًا - وحاشاه - هل يغامر هذه المغامرة، ويرضى بهذا الاختبار العلني من علماء وأحبار، وهو لا يعرف ما هي الأسئلة أو إجابتها، ويقول: «سلوني عما شئتم»؟! لو كان يأخذ من أساطير الأولين، أليس المفترض أنه يقول: انتظروني حتى أراجع مراجعي أو مشايخي؟ أم أنه كان مطمئنًا إلى صدق نفسه، واثقًا بمن أرسله وأنه لا يخذله أبدًا، ومع أنهم يسألونه في علوم لم يدرسها، ولا يعرفها قومه، إلا أنه كان يجيب عليها بكل دقة، والعجب أن هذا الأسئلة ليست في علم واحد، بل هي في عدة علوم، فبعضها طبية، وبعضها غيبية لا يمكن لأحد أن يطلع عليها إلا بوحي، أليس في هذا أوضح دليل على صدق رسالته؟

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢٤٧٩)، وصححه أحمد شاكر، رقم (٢٤٨٣).

إخباره بالغيب

من أدلة صدق النبي ﷺ إخباره بالغيب سواء كان غيبًا لاحقًا أو سابقًا أو حاضرًا، وأخبر بما يكون بعد موته من الردة في خلافة أبي بكر رضي الله عنه، والفتنة في زمن علي رضي الله عنه، وأخبر بأن الخلفاء الثلاثة عمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم يُقتلون شهداء، وأخبر بفتح القسطنطينية والحيرة ومصر وفارس والروم وبيت المقدس، وبأويس القرني، وأخبر بخروج كثير من الفرق كالخوارج والقدرية، وبشر كثيرًا من الصحابة بالجنة فماتوا على الإيمان، وأخبر الكثير بدخولهم النار فماتوا على الكفر، وأخبر بكثير من أشراط الساعة الصغرى[1] وقد تحققت.

ولم تتحقق هذه الأمور إلا بعد موته، وهذا لا يمكن أن يكون إلا بوحي.

ومثل هذا أيضًا إخباره بالغيب الماضي، كقصص السابقين والأنبياء وبني إسرائيل، فقد تحدث عن أخبار الأنبياء قبله بأدق التفاصيل التي لم تكن موجودة في كتاب، وحدث بالكثير من أخبار بني إسرايل وصدّقته التوراة والإنجيل على ذلك، فهذه الغيبيات الماضية ليس لها مقدمات يستدل بها عليها، ومع هذا أخبر بها النبي ﷺ موافقة للواقع. قد يقول قائل: إنه قرأ التاريخ. قلنا: إنه لا يعرف القراءة ولا الكتابة، ولو سلمنا بهذا، فإنه كان يخبر بالغيب الحاضر أيضًا، كإخباره الصحابة بغزوة مؤتة وهو في المدينة، وهي قريب من الشام، فعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ نعى زيدًا

---

(١) انظر: الصحيح المسند من دلائل النبوة، للوادعي، باب: الإخبار عن أمور مستقبلية (ص٣٩٩ - ٥٤٠).

وجعفرًا وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم، فقال: «أخذ الرَّاية زيدٌ فأصيب، ثم أخذ جعفر فأصيب، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب - وعيناه تذرفان - حتى أخذ سيفٌ من سيوف اللَّه حتى فتح اللَّه عليهم»[١].

* * * * *

(١) أخرجه البخاري، كتاب المناقب، باب: مناقب خالد بن الوليد، رقم (٣٧٥٧).

إخباره بالنهايات في البدايات

قد ينكر بعض الناس الدليل السابق (إخباره بالغيب) زعمًا أن هذا قد يحصل بإدراك المقدمات أو الفراسة أو معرفة السنن الكونية أو قراءة التاريخ أو بأخبار سرية أو بالحدس أو الاستعانة بالجن ليخبروه عما غاب عنه.

فنقول: لقد أخبر النبي ﷺ بكثير من الأمور قبل حصولها، أو حتى حصول مقدماتها، وهذا لا يتأتى من بني البشر[1].

فالغيب بيننا وبينه حجاب كثيف، ولا ينخرق هذا الحجاب إلا بوحي من السماء.

نعم؛ قد يستشرف الإنسان المستقبل ويستقرئه ويستشفه عن طريق مقدمات ودلائل يلتمس منها النفوذ إلى حجاب المستقبل، كما يفعل الساسة والاقتصاديون وغيرهم، ولكنه في الغالب لا يكون صوابًا، والصواب منه إنما حصل بسبب حصول مقدماته القريبة، كرجل مر على بيت قديم متهاوٍ، فقال: احذروا هذا البيت فإنه سيقع. فإننا نقول: قد يتحقق كلامه في وقت قريب أو بعيد باعتبار هذه المقدمات الواقعة. وأما لو مر على بيت جديد محكم البناء، وقد بُني على أحدث الطرائق الهندسية بإشراف مهندسين ومتخصصين وخبراء، فقال: احذروا هذا

---

(١) انظر: كتاب «تثبيت دلائل النبوة» للقاضي عبد الجبار الهمذاني (٢/ ٣١٤)، حققه د. عبد الكريم عثمان، دار العربية للطباعة والنشر، بيروت، وهو كتاب حافل مليء بالفوائد، لا سيما الأدلة العقلية على نبوة النبي ﷺ، لأنه من مدرسة المعتزلة العقلية.

البيت فإنه سيقع. لقلنا: هذه ترهات وسفاهات لا تصدر من عاقل.

لذلك إذا لم يكن هناك مقدمات وإشارات وقرائن، فلا يمكن لأحد أن يعرف ماذا سيحصل في المستقبل، بل لا يمكن أن يعرف ماذا سيحصل بعد لحظة: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥].

فمثلاً لو أن النبي ﷺ انتصر على العرب، ثم بشر بأنه سينتصر على العجم، لقلنا: إنما قال هذا لحصول مقدمات لهذا الحدث، وهو انتصاره على العرب، ولكن الأمر الغريب أن النبي ﷺ يبشر بهذه الأمور في ظروف هي أبعد ما تكون توقعًا لها.

فمن ذلك ما جاء عن خباب بن الأرت قال: شكونا إلى رسول اللَّه ﷺ وهو متوسدٌ بردةً له في ظل الكعبة، فقلنا: ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا، فقال: «قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل، فيحفر له في الأرض، فيجعل فيها فيجاء بالمنشار، فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، فما يصده ذلك عن دينه، واللَّه ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا اللَّه والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»[١].

فـ«الدعوة المحمدية في مكة عشر سنوات كلها إعراض من قومه عن الاستماع لقرآنه، وصدٌّ لغيرهم عن الإصغاء له، واضطهاد وتعذيب لتلك الفئة القليلة التي آمنت به، ثم مقاطعة له ولعشيرته ومحاصرتهم مدة غير يسيرة في شِعب من شِعاب مكة، ثم مؤامرات سرية وعلنية على قتله أو

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المناقب، باب: ما لقي النبي ﷺ وأصحابه بمكة، رقم (٦٩٤٣).

نفيه، فهل للمرء أن يلمح في ثنايا هذا الليل الحالك الذي طوله عشرة أعوام شعاعًا ولو ضئيلاً من الرجاء أن يتنفس صبحه عن الإذن لهؤلاء المظلومين برفع صوتهم وإعلان دعوتهم؟ ولو شامَ المصلح تلك البارقة من الأمل في جوانب نفسه من طبيعة دعوته، لا في أفق الحوادث؛ فهل يتفق له في مثل هذه الظروف أن يربو في نفسه الأمل حتى يصير حكمًا قاطعًا؟ وهَبْهُ امتلأ رجاء بظهور دعوته في حياته ما دام يتعهدها بنفسه؛ فمن يتكفل له بعد موته بقاء هذه الدعوة وحمايتها وسط أمواج المستقبل العاتية؟ وكيف يجيئه اليقين في ذلك وهو يعلم من عبر الزمان يفتُّ في عضد هذا اليقين؟ فكم من مصلح صرخ بصيحات الإصلاح فما لبثت أصواته أن ذهبت أدراج الرياح، وكم من مدينة قامت في التاريخ ثم عفت ودرست آثارها، وكم من نبي قتل، وكم من كتابٍ فُقد أو انتقص أو بُدِّل، وهل كان محمد ﷺ ممن تستخفه الآمال فيجري مع الخيال؟ إنه ما كان قبل نبوته يطمع في أنه يكون نبيًا يوحى إليه: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦]، ولا كان بعد نبوته يضمن لنفسه أن يبقى هذا الوحي محفوظًا لديه: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٦ - ٨٧]؛ فلا بد إذًا من كفيل بهذا الحفظ من خارج نفسه، ومن ذا الذي يملك هذا الضمان على الدهر المتقلب المملوء بالمفاجآت؟ إلا رب الدهر الذي بيده زمام الحوادث كلها، والذي قدَّر مبدأها ومنتهاها، وأحاط علمًا بمجراها ومرساها، فلولا فضل اللّه ورحمته الموعود بهما في الآية الآنفة لما استطاع القرآن أن يقاوم تلك الحروب العنيفة التي أقيمت ولا تزال تقام عليه بين آن وآن.

سل التاريخ: كم مرةٍ تنكر الدهر لدول الإسلام، وتسلط الفجار على المسلمين فأثخنوا فيهم القتل، وأكرهوا أممًا منهم على الكفر، وأحرقوا الكتب، وهدموا المساجد؛ وصنعوا ما كان يكفي القليل منه لضياع هذا القرآن كلاً أو بعضًا كما فُعل بالكتب قبله؛ لولا أن يد العناية تحرسه فبقي في وسط هذه المعامع رافعًا راياته وأعلامه، حافظًا آياته وأحكامه، بل اسأل صحف الأخبار اليومية كم من القناطير المقنطرة من الذهب والفضة تنفق في كل عام لمحو هذا القرآن، وصدِّ الناس عن الإسلام بالتضليل والبهتان والخداع والإغراء، ثم لا يظفر أهلها من وراء ذلك إلا بما قال اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦]، ذلك بأن الذي يمسكه أن يزول هو الذي يُمسك السماوات والأرض أن تزولا، ذلك بأن اللَّه ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣]، واللَّه بالغ أمره ومتم نوره فظهر، وسيبقى ظاهرًا، لا يضره من خالفه حتى يأتي أمر اللَّه»[١].

وتأملْ ما حصل في حادثة الهجرة وهو مطارد من قريش، وليس معه إلا رجل واحد، والكل يتربص به ليقتله أو يسلمه ليأخذ الجائزة، ثم يقول لسراقة: «كيف بك إذا لبست سواري كسرى» ثم يتحقق هذا الأمر ويلبسهما في زمن أمير المؤمنين الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه[٢].

---

(١) النبأ العظيم (ص٣٨ - ٤٧).

(٢) انظر: الإصابة، لابن حجر، في ترجمة سراقة رضي الله عنه (٣/ ٤٢).

وعندما جاء رسول كسرى إلى النبي ﷺ ليتوعده ويتهدده قال له النبي ﷺ: «إن ربي قتل ربكما» فنظروا فإذا بكسرى مات في ذلك اليوم[١]، ومثل هذا ليس له مقدمات تدل عليه، ولم يكتب بعد في أي كتاب، ولكنها النبوة.

* * * * *

(١) انظر: الخصائص الكبرى، للسيوطي (٢/ ١٤)، باب: ما وقع عند كتابه إلى كسرى، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٥م.

الوصف الدقيق للغيب

إن وصف أمور الغيب بدقة لا يكون إلا ممن رآه أو سمع من رآه، ولذلك يمكن القول: إن وصف النبي ﷺ لربه وللملائكة وللجنة والنار وصف عجيب، لا يمكن أن يأتي به بشر.

فوصف النبي ﷺ للَّه ﷻ وصف خالٍ من التنقص، مليء بكل كمال واجب للَّه ﷻ[1]؛ فيصفه بالقدرة المطلقة والحكمة الباهرة والرحمة الواسعة والحياة الكاملة، وغير ذلك من الأسماء والصفات، فسماه بأحسن الأسماء، ووصفه بأجمل الأوصاف: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، و(الحسنى) أفعل تفضيل مؤنث من الحسن، يعني: أن للَّه أحسن الأسماء، ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ﴾ [النحل: ٦٠]، والمثل في هذا السياق يعني: الصفة؛ كقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ﴾ [محمد: ١٥]، يعني: أن له - سبحانه أعلى الأوصاف.

وهذا الوصف لا يمكن لمخلوق أن يتصف به ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ﴾ [النحل: ٧٤]، ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا﴾ [البقرة: ٢٢]، ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾ [الإخلاص: ٤]، ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم: ٦٥]؛ فهو ﷻ لا مثل له ولا ندَّ له ولا كفو له ولا سميَّ له.

---

(١) انظر: كتاب «اللَّه أهل الثناء والمجد»، د. ناصر الزهراني، مؤسسة الجريسي، الرياض، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م، فهو جيد في هذا الباب.

ولكن انظر إلى البشر إذا أرادوا أن يصفوا اللَّه ماذا يقولون[١]، فبعضهم يجعل الإله حيوانًا كمن يعبد البقر أو الفأر، وبعضهم يجعله جمادًا كمن يعبد الأصنام والنار، وبعضهم يعدد الآلهة كالمجوس الذين جعلوا إلهًا للظلمة وإلهًا للنور، والإغريق الذين جعلوا إلهًا للحب وآخر للرزق وثالثًا للكواكب، وفي ضمن هذا تنقص واضح، كأنهم يقولون: إن إلههم لا يستطيع أن يحوي جميع هذه القدرات، وبعضهم يعبد ما هو أقبح من ذلك كالفروج، بل بعضهم شطح عقله حتى عبد عدو الإنسانية الأول إبليس، ولكن لنرتفع عن هذه الديانات ونذهب إلى الرسالات السماوية، ونرى كيف وصف أصحابها الرب ﷻ.

أما اليهود فهم من أجرأ الناس على مدار التاريخ على الجبار ﷻ، فقد قالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران: ١٨١]، وقالوا: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤]، يعني: بخيل[٢]، سبحانه وتعالى عمَّا يقولون علوًا كبيرًا.

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأما اليهود فقد حكى اللَّه لك عن جهل أسلافهم

(١) انظر: هداية الحيارى، لابن القيم، فصل: ثمرة إنكار النبوات جحد الخالق والجهل بأسمائه وصفاته (ص٣٥٤).
ولقد ألف عباس محمود العقاد كتاباً حافلًا بعنوان: «اللَّه»، تكلم فيه عن وصف اللَّه تعالى في الأديان والأفكار والشعوب المحرمة من نور الوحي، فذكر وصف اللَّه تعالى عند الحضارات السابقة في مصر والهند والصين وفارس وبابل واليونان، وفي الأديان السماوية كاليهود والنصارى، وعند الفلاسفة، وغير ذلك، وهو كتاب مفيد، طبعته دار نهضة مصر، في القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٩٧م، وبالمقارنة بين هذه الأديان وبين وصف النبي ﷺ ربّه يتضح الفرق بين الوصفين، ويتبين لك أن هذا الوصف لا يتأتى إلا لمن كان مؤيَّداً بالوحي.

(٢) انظر: فتح القدير، للشوكاني (٢/ ٦٠).

وغباوتهم وضلالهم، ما يدلُّ على ما وراءه من ظلمات الجهل، التي بعضها فوق بعض، ويكفي في ذلك عبادتهم العجل الذي صنعته أيديهم من ذهب، ومن عبادتهم أن جعلوه على صورة أبلد الحيوان وأقله فطانة، الذي يضرب المثل به في قلة الفهم، فانظر إلى هذه الجهالة والغباوة المتجاوزة للحد، كيف عبدوا مع اللَّه إلهًا آخر، وقد شاهدوا من أدلة التوحيد وعظمة الرب وجلاله ما لم يشاهده سواهم، وإذ قد عزموا على اتخاذ إله دون اللَّه، فاتخذوه ونبيهم حي يبين أظهرهم لم ينتظروا موته، وإذ قد فعلوا فلم يتخذوه من الجواهر العلوية كالشمس والقمر والنجوم، بل من الجواهر الأرضية، وإذ قد فعلوا فلم يتخذوه من الجواهر التي خلقت فوق الأرض عالية عليها، كالجبال ونحوها بل من جواهر لا تكون إلا تحت الأرض والصخور والأحجار، عالة عليها، وإذ قد فعلوا فلم يتخذوه من جوهر يستغني عن الصنعة وإدخال النار وتقليبه وجوهًا مختلفة وضربه بالحديد وسبكه بل من جوهر يحتاج إلى نيل الأيدي له بضروب مختلفة وإدخاله النار وإحراقه واستخراج خبثه، وإذ قد فعلوا فلم يصوغوه على تمثال ملك كريم ولا نبي مرسل ولا على تمثال جوهر علوي لا تناله الأيدي بل على تمثال حيوان أرضي، وإذ قد فعلوا فلم يصوغوه على تمثال أشرف الحيوانات وأقواها وأشدها امتناعًا من الضيم كالأسد والفيل ونحوهما بل صاغوه على تمثال أبلد الحيوان وأقبله للضيم والذل بحيث يُحرَث عليه ويُسقَى عليه بالسواقي والدواليب ولا له قوة يمتنع بها من كبير ولا صغير؛ فأي معرفة لهؤلاء بمعبودهم ونبيهم وحقائق الموجودات؟!

وحقيق بمن سأل نبيه أن يجعل له إلهًا، فيعبد إلهًا مجعولاً بعدما شاهد تلك الآيات الباهرات؛ أن لا يعرف حقيقة الإله ولا أسماءه وصفاته

ونعوته ودينه، ولا يعرف حقيقة المخلوق وحاجته وفقره ولو عرف هؤلاء معبودهم ورسولهم لما قالوا لنبيهم: لن نؤمن لك حتى نرى اللَّه جهرة، ولا قالوا له: اذهب أنت وربك فقاتلا، ولا قتلوا نفسًا وطرحوا المقتول على أبواب البُرَءاءِ مِنْ قتله، ونبيهم حي يبين أظهرهم، وخبر السماء والوحي يأتيه صباحًا ومساء، فكأنهم جوزوا أن يخفى هذا على اللَّه كما يخفى على الناس، ولو عرفوا معبودهم لما قالوا في بعض مخاطباتهم له: «يا أبانا انتبه من رقدتك كم تنام» ولو عرفوه لما سارعوا إلى محاربة أنبيائه وقتلهم وحبسهم ونفيهم، ولما تحيلوا على تحليل محارمه، وإسقاط فرائضه بأنواع الحيل. . . »[١].

إلى آخر تلك السلسلة من الشتائم التي لم يقلها حتى عباد الأصنام لآلهتهم.

وأما النصارى الذين هم أحسن حالاً من اليهود وأقرب لنا منهم، فقد اجتمع أكثر من ألفي عالم من علمائهم في مؤتمر الأمانة - ويسميه علماء الإسلام مؤتمر الخيانة[٢] - ليحددوا عقيدتهم في اللَّه، فنسبوا للَّه - سبحانه وتعالى - كما يقول ابن القيم - أفعال الحمقى والمجانين[٣] تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا، فلو أن ملكًا غضب على شعبه بسبب ذنبٍ واحدٍ، ارتكبه رجل واحد، ثم حاول شعبه إرضاءه بكل سبيل فلم يفلح، ثم قال لهم بعد أزمان طويلة: إذا أردتم إرضائي وذهاب غضبي، فإني أرسل لكم ابني فاضربوه وابصقوا في وجهه واقتلوه، فعندها فقط

---

(١) هداية الحيارى من اليهود والنصارى، لابن القيم (ص٣٥٧ - ٣٥٩).
(٢) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٣٦٦).
(٣) انظر: هداية الحيارى من اليهود والنصارى، لابن القيم (ص٣٢٣).

أرضى عليكم. من يفعل هذا الفعل؟!

فالنصارى يقولون: إن اللَّه غضب على البشرية بسبب خطيئة آدم، فلم يرض عن البشرية مع من فيها من الأنبياء والمرسلين إلا بعد أن أرسل ابنه إلى البشرية، فلم يزل غضبه مستمرًا حتى قاموا بضرب الابن وصفعه والبصق في وجهه وصلبه، ووضع الشوك على رأسه، وتسمير يديه باللوح، وإبقائه مصلوبًا حتى مات؛ عندها فقط رضي عن كل البشر، وسامحهم على تلك الخطيئة تعالى اللَّه عمَّا يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

أيضًا وَصَفَ النبيُّ ﷺ الملائكة وصفًا عجيبًا؛ فهم جند اللَّه والقامون بأمره، العابدون لربهم في كل وقت لا يفترون، ولا ينامون، ولا يأكلون، ولا يشربون بل يسبحون اللَّه الليل والنهار لا يسأمون، أين هذا من وصف الكفار لهم بالإناث وغير ذلك؟!

ووصف الجنة وصفًا هو في غاية من الدقة والاستثارة والتشويق، بحيث لا تتمالك نفسك إذا سمعت هذا الوصف أن تقول: اللَّهم اجعلني من أهلها ولا تحرمني دخولها[(١)]. لكنك عندما تسمع لكثير من الفلاسفة في وصف ما سموه بـ«المدينة الفاضلة» ستضحك من قصور وصفهم، وسذاجة تفكيرهم، وسترى البون الشاسع والفرق الواسع بين وصف النبي ﷺ ووصف هؤلاء، وهم معذورون؛ لأن النبي ﷺ لم يأت به من عنده بل من الوحي.

---

(١) وكانت رسالتي في الماجستير بعنوان: «اليوم الآخر في القرآن»، وعقدت فيها فصلًا عن الجنة، ووصفها استغرق مائة وسبعاً وثلاثين صفحة (من ٥٢١ إلى ٦٥٨)، وقد طبعتها - بفضل من اللَّه - دار الجديد النافع في الكويت.

وأما وصفه النار فهو وصف بليغ، يقذف في قلبك الخوف والفزع والرهبة من هذه الدار. يقول جفري لانغ: «عندما يترجم كتاب مقدس إلى لغة ما، فإنه ينجم عن ذلك ضياغ كبير في المعنى، ولكن إذا كان دافع المترجم الالتزام والتقوى فقد يشع في النص المترجم بيرق مقدس، لا يمكن أن تقيده حدود الإنسانية، وعلى الرغم من أن القرآن بالتأكيد هو أشد تأثيرًا على القارئ في اللغة الأصلية (العربية) من الترجمات، إلا أن شيئًا من الروعة والرهبة والجمال والإشراق من التصوير الفني القرآني قد يحيا في الترجمة، ليثير في النفس انعكاسًا عميقًا، كالمشاهد التصويرية والمرعبة للنار على سبيل المثال...» إلى أن قال: «وعلى الرغم من أن جميع معتنقي الإسلام الغربيين مجبرون على الاعتماد على التفسير للقرآن، إلا أني واثق من أن جميع هؤلاء قادرون على التمييز والانتباه إلى أن أكثر ما يثير الإعجاب بالقرآن هو اسلوبه الأدبي؛ لأنه يغرس في قارئه ذلك الشعور غير الملموس من أنه صادر عن وحي سماوي»[١].

* * * * *

(١) الصراع من أجل الإيمان، لجفري لانغ (ص٨١).

المطلب الخامس
حفظه وتأييده

- إقرار اللَّه ﷻ له ولدعوته.
- استعداد للمباهلة.
- حمايته من كل ما يكاد به، ونجاته من كل محاولات الاغتيال.
- استجابة دعائه.

إقرار الله ﷻ له ولدعوته

من أدلة صدق النبي ﷺ إقرار الله لدعوته، فإن الله ﷻ أخبر أن محمدًا ﷺ لو تقوّل على ربه شيئًا من الأقاويل لأهلكه ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٧] والواقع أنه حفظه وأيده، وقال ﷻ: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ [طه: ٦١]، وقال ﷻ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [يونس: ٦٩]، وقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣]، ولكن النبي ﷺ ما خاب بل هُدي وأفلح في كل المجالات، ودينه أعظم الأديان في الأرض وأكثرها انتشارًا.

وقد قرر الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الدليل أوضح تقرير، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد جرت لي مناظرة بمصر مع أكبر من يشير إليه اليهود بالعلم والرياسة، فقلت له في أثناء الكلام: أنتم بتكذيبكم محمدًا ﷺ قد شتمتم الله أعظم شتيمة، فعجب من ذلك وقال: مثلك يقول هذا الكلام؟ فقلت له: اسمع الآن تقريره؛ إذا قلتم: إن محمدًا ملك ظالم، قهر الناس بسيفه، وليس برسول من عند الله، وقد أقام ثلاثًا وعشرين سنة يَدْعي أنه رسول الله أرسله إلى الخلق كافة، ويقول: أمرني الله بكذا ونهاني عن كذا، وأُوحي إلي كذا، ولم يكن من ذلك شيء، ويقول: إنه أباح لي سبي ذراري من كذبني وخالفني ونساءهم، وغنيمة أموالهم، وقتل رجالهم، ولم يكن من ذلك شيء، وهو يدأب في تغيير دين الأنبياء، ومعاداة أممهم، ونسخ

شرائعهم؛ فلا يخلو إما أن تقولوا: إن اللَّه ﷻ كان يطلع على ذلك ويشاهده ويعلمه، أو تقولوا: إنه خفي عنه ولم يعلم به، فإن قلتم: لم يعلم به. نسبتموه إلى أقبح الجهل، وكان من عَلَم ذلك أعلم منه، وإن قلتم: بل كان ذلك كله بعلمه ومشاهدته واطلاعه عليه. فلا يخلو إما أن يكون قادرًا على تغييره والأخذ على يديه ومنعه من ذلك أو لا، فإن لم يكن قادرًا فقد نسبتموه إلى أقبح العجز المنافي للربوبية، وإن كان قادرًا وهو مع ذلك يعزه وينصره، ويؤيده ويعليه ويعلي كلمته، ويجيب دعاءه، ويمكنه من أعدائه، ويظهر على يديه من أنواع المعجزات والكرامات ما يزيد على الألف، ولا يقصده أحد بسوء إلا أظفره به، ولا يدعوه بدعوة إلا استجابها له، فهذا من أعظم الظلم والسفه الذي لا يليق نسبته إلى آحاد العقلاء، فضلاً عن رب الأرض والسماء، فكيف وهو **يشهد له بإقراره على دعوته وبتأييده وبكلامه**، وهذه عندكم شهادة زور وكذب؟! فلما سمع ذلك قال: معاذ اللَّه أن يفعل اللَّه هذا بكاذب مفتر بل هو نبي صادق، من اتبعه أفلح وسعد. قلت: فما لك لا تدخل في دينه؟ قال: إنما بعث إلى الأميين الذين لا كتاب لهم، وأما نحن فعندنا كتاب نتبعه، قلت له: غُلبت كلَ الغلب؛ فإنه قد علم الخاص والعام أنه أخبر إنه رسول اللَّه إلى جميع الخلق، وأن من لم يتبعه فهو كافر من أهل الجحيم، وقاتل اليهود والنصارى وهم أهل كتاب، وإذا صحت رسالته وجب تصديقه في كل ما أخبر به، فأمسك ولم يحر جوابًا»[1].

---

(١) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، لابن قيم الجوزية (ص٨٧)، نشر الجامعة الإسلامية في المدينة النبوية.

ومثال هذا «لو أن حاجب الأمير قال للناس: إن الأمير قد أمركم بفعل كذا وكذا. فإن الناس يعلمون أنه لا يتعمد الكذب في مثل هذا وإن لم يكن بحضرته، فكيف إذا كان بحضرته»[١] وبعلمه.

* * * * *

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، لشيخ الإسلام ابن تيمية (٦/ ٤٨٣)، تحقيق: د. علي بن ناصر وآخرين، الرياض، دار العاصمة، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.

استعداد للمباهلة

من أدلة صدق النبي ﷺ استعداده للملاعنة والمباهلة على من خالفه، غير وجل ولا خائف أن يحيق به شيء[١].

والمباهلة هي الملاعنة[٢]، قال في لسان العرب[٣]: «وباهَلَ القومُ بعضُهم بعضًا وتَبَاهلوا وابتهلوا: تَلاعَنوا، والمُباهلة: المُلاعَنَة؛ ويقال: باهَلْت فلانًا أي: لاعنته، ومعنى المباهلة: أن يجتمع القوم إذا اختلفوا في شيء فيقولوا: لَعْنَةُ اللّه على الظالم منا، وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما: من شاء باهَلْته أن الحقَّ معي».

قال ابن حجر رحمه الله في سرده لفوائد حديث حذيفة القادم: «وفيها مشروعية مباهَلَة المخالف إذا أصر بعد ظهور الحجة، وقد دعا ابن عباس إلى ذلك ثم الأوزاعي، ووقع ذلك لجماعة من العلماء، ومما عرف بالتجربة أن من باهل وكان مبطلاً لا تمضي عليه سنة من يوم المباهلة، ووقع لي ذلك مع شخص كان يتعصب لبعض الملاحدة[٤] فلم يقم بعدها غير شهرين»[٥].

(١) كتاب: الداعي إلى الإسلام، لكمال الدين الأنباري (ص٤٣٧)، دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٨م، وتثبيت دلائل النبوة، للقاضي عبد الجبار (٢/ ٤٢٦).

(٢) انظر: مختار الصحاح (١/ ٢٧).

(٣) (١١/ ٧٢).

(٤) يعني ابن عربي.

(٥) فتح الباري (٧/ ٦٩٧).

ودلالة هذا الوجه على النبوة من وجهين:

١- ثقة النبي ﷺ الكاملة في دينه ومن أرسله جل وعلا، إذ من كان في قلبه أدنى شك في معتقده لا يمكن أن يقدم على مثل هذا المخاطرة المهلكة إلا أن يعتقد اعتقادًا جازمًا في صدق ما يقول.

٢- نكوص النصارى عن المباهلة، مما يدل على تصديقه في قلوبهم ولكنهم يعاندون.

قال تعالى له: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وكان سبب نزول هذه المباهلة وما قبلها من أول السورة إلى هنا في وفد نجران: أن النصارى لما قدموا فجعلوا يحاجون في عيسى، ويزعمون فيه ما يزعمون من البنوة والإلهية، فأنزل اللَّه صدرًا في هذه السورة ردًا عليهم، كما ذكره الإمام محمد بن إسحاق بن يسار وغيره، وقدم على رسول اللَّه ﷺ وفد نصارى نجران ستون راكبًا، وأمر هؤلاء يؤول إلى ثلاثة منهم؛ وهم العاقب وكان أمير القوم وذا رأيهم وصاحب مشورتهم والذي لا يصدرون إلا عن رأيه، والسيد وكان عالمهم وصاحب رحلهم ومجتمعهم، وأبو حارثة ابن علقمة وكان أسقفهم صاحب مدارستهم، وكان رجلًا من العرب من بني بكر بن وائل، ولكنه تنصر فعظمته الروم وملوكها، وشرفوه وبنوا له الكنائس، وأكرموه لما يعلمونه من صلابته في دينهم، وقد كان يعرف أمر رسول اللَّه ﷺ، وصفته وشأنه مما علمه من الكتب المتقدمة، ولكن حمله على الاستمرار

في النصرانية؛ لما يرى من تعظيمه فيها وجاهه عند أهلها، قال ابن إسحاق: وحدثني محمد بن جعفر بن الزبير، قال: قدموا على رسول اللَّه ﷺ المدينة فدخلوا عليه مسجده حين صلى العصر، فكلم رسول اللَّه ﷺ منهم أبو حارثة ابن علقمة، والعاقب عبد المسيح، والسيد الأيهم وهم من النصرانية على دين الملك، فلما كلمه الحبران قال لهما رسول اللَّه ﷺ: «أسلما». قالا: قد أسلمنا. قال: «إنكما لم تسلما، فأسلما»، قالا: بلى قد أسلمنا قبلك. قال: «كذبتما يمنعكما من الإسلام ادعاؤكما للَّه ولدًا، وعبادتكما الصليب وأكلكما الخنزير»، قالا: فمن أبوه يا محمد؟ فصمت رسول اللَّه ﷺ عنهما فلم يجبهما، فأنزل اللَّه في ذلك من قولهم واختلاف أمرهم صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها، فلما أتى رسول اللَّه ﷺ الخبر من اللَّه والفصل من القضاء بينه وبينهم، وأمر بما أمر به من ملاعنتهم أن ردوا ذلك عليه دعاهم إلى ذلك، فقالوا: يا أبا القاسم دعنا ننظر في أمرنا ثم نأتيك بما نريد أن نفعل فيما دعوتنا إليه، ثم انصرفوا عنه ثم خلوا بالعاقب، وكان ذا رأيهم فقالوا: يا عبد المسيح ماذا ترى؟ فقال: واللَّه يا معشر النصارى لقد عرفتم أن محمدًا لنبيٌّ مرسل، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم، ولقد علمتم أنه ما لاعن قوم نبيًا قط فبقي كبيرهم ولا نبت صغيرهم، وإنه للاستئصال منكم إن فعلتم، فإن كنتم أبيتم إلا إلفَ دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم، فأتوا النبي ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم قد رأينا أن لا نلاعنك، ونتركك على دينك ونرجع على ديننا، ولكن ابعث معنا رجلاً من أصحابك ترضاه لنا، يحكم بيننا في أشياء اختلفنا فيها في أموالنا، فإنكم عندنا رضا، فدعى أبا عبيدة فقال: «اخرج

معهم فاقض بيهم بالحق فيما اختلفوا فيه»»[١].

وفي الصحيحين عن حذيفة ﷺ قال: جاء العاقب والسيد صاحبا نجران إلى رسول اللَّه ﷺ يريدان أن يُلاعِناهُ[٢] قال: فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل فواللَّه لئن كان نبيًا فلاعننا لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا، قالا: إنا نعطيك ما سألتنا وابعث معنا رجلاً أمينًا، ولا تبعث معنا إلا أمينًا، فقال: «لأبعثن معكم رجلاً أمينًا حق أمين»، فاستشرف له أصحاب رسول اللَّه ﷺ فقال: «قم يا أبا عبيدة بن الجراح»، فلما قام قال رسول اللَّه ﷺ: «هذا أمين هذه الأمة»[٣].

وعن ابن عباس ﷺ قال: قال أبو جهل: لئن رأيت رسول اللَّه ﷺ يصلّي عند الكعبة لآتينه حتى أطأ على عنقه، قال: فقال ﷺ: «لو فعل لأخذته الملائكة عيانًا، ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم في النار، ولو خرج الذين يباهلون رسول اللَّه ﷺ لرجعوا لا يجدون مالاً ولا أهلاً»[٤].

فكيف لرجل كاذب أن يقحم نفسه في هذه المزلة، ويرضى أن يكون ملعونًا بلعنة اللَّه، مطرودًا من رحمته مستوجبًا الهلاك ومستعجلاً انتقام اللَّه منه، إلا إن كان صادقًا، عالمًا من صدق نفسه، واثقًا بمن أرسله.

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١/ ٣٦٨).

(٢) يعني: بعد أن دعاهما النبي ﷺ إلى ذلك، كما تبين من سبب النزول والأحاديث الأخرى، وانظر: فتح الباري (٧/ ٦٩٦).

(٣) متفق عليه (البخاري: كتاب المغازي، باب: قصة أهل نجران، رقم (٤١١٩)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب: فضائل أبي عبيدة، رقم (٢٤٢٠)).

(٤) أخرجه الإمام أحمد (٢٢٢٦) بإسناد على شرط البخاري، وأخرج البخاري الجزء الأول من الحديث إلى قوله: «لأخذته الملائكة عياناً»، كتاب التفسير، باب: قوله: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ [العلق: ١٥]، رقم (٤٩٥٨).

حمايته من كل ما يكاد به
ونجاته من كل محاولات الاغتيال

وهذا الدليل استدل به اليهود على صدق النبي ﷺ:

ففي حديث عائشة رضي الله عنها عندما سحر النبي ﷺ لبيد بن الأعصم[١]، «أخرج ابن سعد بسندٍ له إلى عمر بن الحكم مُرسل قال: لما رجع رسول اللَّه ﷺ من الحديبية في ذي الحجة، ودخل المحرم من سنة سبع جاءت رؤساء اليهود إلى لبيد بن الأعصم - وكان حليفًا في بني زريق وكان ساحرًا - فقالوا له: يا أبا الأعصم، أنت أسحرنا، وقد سحرنا محمدًا فلم نصنع شيئًا، ونحن نجعل لك جعلاً على أن تسحره لنا سحرًا ينكؤه، وفي رواية ابن سعد: فقالت أخت لبيد بن الأعصم، إن يكن نبيًا فسيخبر، وإلا فسيذهله هذا السحر حتى يذهب عقله»[٢]، فلما صنع السحر لم يضره بشيء، وكان قصارى الأمر أنه يظن أنه فعل الشيء، وهو لم يفعله، ثم دلَّه اللَّه تعالى على مكان السحر وأبطله.

وفي الصحيحين عن أنس رضي الله عنه أن امرأة يهودية أتت رسول اللَّه بشاة مسمومة، فأكل منها، فجيء بها إلى رسول اللَّه ﷺ فسالها عن ذلك، فقالت: أردت لأقتلك. قال: «ما كان اللَّه ليسلطك علي»[٣]، ورواه

---

(١) متفق عليه (البخاري: كتاب الطب، باب: السحر، رقم (٥٤٣٣)، ومسلم: كتاب السلام، باب: السحر، رقم (٢١٨٩))، وسيأتي نصه.

(٢) فتح الباري (١٠/ ٢٣٧).

(٣) متفق عليه (البخاري: كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، باب: قبول الهدية من المشركين، رقم (٢٦١٧)، ومسلم: كتاب السلام باب: السم، رقم (٢١٩٠)).

أبو داود من حديث جابر بن عبد اللَّه رضي الله عنهما يُحدث: أنَّ يهودية من أهل خيبر سمت شاة مَصْلِيَّة[١]، ثم أهدتها لرسول اللَّه ﷺ، فأخذ رسول اللَّه ﷺ الذِّراع فأكل منها، وأكل رهطٌ من أصحابه معه، ثم قال لهم رسول اللَّه ﷺ: «ارفعوا أيديكم»، وأرسل رسول اللَّه ﷺ إلى اليهودية فدعاها، فقال لها: «أسممتِ هذه الشاة؟» قالت اليهودية: من أخبرك؟ قال: «أخبرتني هذه في يدي»، للذراع، قالت: نعم، قال: «فما أردتِ إلى ذلك؟» قالت: قلت: إن كان نبيًا فلن يضره، وإن لم يكن نبيًا استرحنا منه، فعفا عنها رسول اللَّه ﷺ ولم يعاقبها[٢].

وقد بدأت هذه المحاولات من بداية البعثة:

فعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن الملأ من قريش اجتمعوا في الحجر، فتعاهدوا باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، لو قد رأينا محمدًا قمنا إليه قيام رجل واحدٍ فلم نفارقه حتى نقتله، قال: فأقبلت فاطمة تبكي حتى دخلت على أبيها، فقالت: هؤلاء الملأ من قومك في الحجر قد تعاهدوا أن لو قد رأوك قاموا إليك فقتلوك، فليس منهم رجل إلا قد عرف نصيبه من دمك، قال: يا بنية أدني وضوءًا فتوضأ ثم دخل عليهم المسجد، فلما رأوه قالوا: هو هذا. فخفضوا أبصارهم وعقروا في مجالسهم، فلم يرفعوا إليه أبصارهم، ولم يقم منهم رجلٌ، فأقبل رسول اللَّه ﷺ حتى قام على رءوسهم، فأخذ قبضةً من تراب فحصبهم بها، وقال: «شاهت

---

(١) مصلية: مشوية. لسان العرب: (١٤/٤٦٧).

(٢) سنن أبي داود: كتاب الديات، باب: فيمن سقى رجلًا سماً أو أطعمه فمات أيقاد به، رقم (٤٥١٠)، وهو صحيح لغيره كما قال الألباني في مشكاة المصابيح، رقم (٥٨٧٤).

الوجوه»، قال: فما أصابت رجلاً منهم حصاةٌ إلا قد قتل يوم بدر كافرًا[١].

وحادثة الهجرة عندما أرادوا أن يقتلوا النبي ﷺ قبل هجرته، فجعل النبي ﷺ مكانه عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه وخرج من بيته مع أن الكفار قد أحاطوا به من كل جانب، إلا أن اللَّه قد أعمى أبصارهم عنه[٢]، وفي هذا يقول تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه في حديث الهجرة الطويل. . .، وفيه: التفت أبو بكر فإذا هو بفارس قد لحقهم، فقال: يا رسول اللَّه هذا فارسٌ قد لحق بنا. فالتفت نبي اللَّه، فقال: «اللَّهم اصرعه»، فصرعه الفرس، ثم قامت تحمحم، فقال: يا نبي اللَّه مرني بما شئت، قال: «فقف مكانك لا تتركن أحدًا يلحق بنا»، قال: فكان أول النهار جاهدًا على نبي اللَّه ﷺ، وكان آخر النهار مسلحةً له[٣].

قال ابن حجر: (وفي قصة سراقة مع النبي ﷺ يقول سراقة مخاطبًا أبا جهل:

أبا حكم واللَّه لو كنت شاهدًا ... لأمر جوادي إذ تسوخ قوائمه
علمت ولم تشكك بأن محمدًا ... رسول ببرهان فمن ذا يقاومه)[٤].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٣٤٧٥)، وإسناده صحيح كما قال الألباني في السلسلة الصحيحة (٦/ ٧٨١)، رقم (٢٨٢٤).

(٢) انظر: الروض الأنف في شرح سيرة ابن هشام، للسهيلي (٤/ ١٧٨).

(٣) البخاري، كتاب المناقب، باب: هجرة النبي ﷺ وأصحابه، رقم (٣٩١١)، ومسلحة له: أي حارساً له بسلاحه.

(٤) الإصابة (٣/ ٤٢).

واستمرت هذه المحاولات في المدينة أيضًا، كما تقدم في حديث لبيد بن الأعصم، وحادثة الشاة المسمومة في خيبر في السنة الخامسة وكذلك حادثة بني النضير الذي أرادوا أن يلقوا الصخرة على النبي ﷺ وهو جالس تحت بيت من بيوتهم، فكان هذا سببًا لجلائهم من المدينة[١].

ولم تكن هذه المحاولات قاصرة على اليهود، بل حتى كفار قريش كانوا مستمرين في ذلك حتى بعد الهجرة؛ فـ«عن ابن شهاب قال: لما رجع كل المشركين إلى مكة، فأقبل عمير بن وهب حتى جلس إلى صفوان بن أمية في الحِجْر، فقال صفوان: قبح اللَّه العيش بعد قتلى بدر. قال: أجل واللَّه ما في العيش خير بعدهم، ولولا دينٌ عليَّ لا أجد له قضاء، وعيال لا أدع لهم شيئًا، لرحلت إلى محمد فقتله إن ملأتُ عيني منه، فإن لي عنده علة، أقول قَدِمْتُ من أجل ابني هذا الأسير، قال: ففرح صفوان وقال له: عليَّ دينُك وعيالك أسوة عيالي في النفقة، لا يسعني شيء فأعجز عنهم. فاتفقا وحمله صفوان وجهزه، وأمر بسيف عمير فصُقِلَ وسُمَّ، وقال عمير لصفوان: اكتم خبري أيامًا. وقدم عمير المدينة فنزل بباب المسجد وعقل راحلته، وأخذ السيف وعمد إلى رسول اللَّه ﷺ، فنظر إليه عمر وهو في نفر من الأنصار، ففزع ودخل إلى رسول اللَّه ﷺ، فقال: يا رسول اللَّه! لا تأمنه على شيء. فقال: «أدخله علي»، فخرج عمر فأمر أصحابه أن يدخلوا إلى رسول اللَّه ﷺ ويحترسوا من عمير، وأقبل عمر وعمير حتى دخلا على رسول اللَّه ﷺ ومع عمير سيفه، فقال رسول اللَّه ﷺ لعمر: «تأخر عنه»، فلما دنا عمير قال: أنعموا صباحًا - وهي تحية الجاهلية - فقال رسول اللَّه ﷺ: «قد أكرمنا

---

(١) انظر: الرحيق المختوم في سيرة المعصوم، للمباركفوري (ص٢٩٣)، دار الحديث، القاهرة.

اللَّه عن تحيتك، وجعل تحيتنا تحية أهل الجنة وهو السلام». فقال عمير: إن عهدك بها لحديث. فقال: «ما أقدمك يا عمير؟»، قال: قدمت على أسيري عندكم، تفادونا في أسرانا، فإنكم العشيرة والأهل. فقال: «ما بال السيف في عنقك؟»، فقال: قبحها اللَّه من سيوف، وهل أغنت عنا شيئًا، إنما نسيته في عنقي حين نزلت، فقال رسول اللَّه ﷺ: «أُصدقني ما أقدمك يا عمير؟»، قال: ما قدمت إلا في طلب أسيري، قال: «فماذا شرطت لصفوان في الحجر؟»، ففزع عمير وقال: ماذا شرطت له؟ قال: «تحملت له بقتلي على أن يعول أولادك، ويقضي دينك، واللَّه حائل بينك وبين ذلك»، فقال عمير: أشهد أنك رسول اللَّه وأشهد أن لا إله إلا اللَّه، كنا يا رسول اللَّه نكذبك بالوحي وبما يأتيك من السماء، وإن هذا الحديث كان بيني وبين صفوان في الحِجْر - كما قلت - لم يطلع عليه أحد، فأخبرك اللَّه به، فالحمد للَّه الذي ساقني هذا المساق. ففرح به المسلمون وقال له رسول اللَّه ﷺ: «اجلس يا عمير نواسك»، وقال لأصحابه: «علموا أخاكم القرآن»، وأطلق له أسيره، فقال عمير: ائذن لي يا رسول اللَّه، فألحق بقريش، فأدعوهم إلى اللَّه وإلى الإسلام لعل اللَّه أن يهديهم، فأذن له فلحق بمكة، وجعل صفوان يقول لقريش: أبشروا بفتح ينسيكم وقعة بدر. وجعل يسأل كل راكب قدم من المدينة هل كان بها من حدث، حتى قدم عليهم رجل فقال لهم: قد أسلم عمير. فلعنه المشركون وقال صفوان: للَّه عليَّ ألا أكلمه أبدًا ولا أنفعه بشيء، ثم قدم عمير فدعاهم إلى الإسلام، ونصحهم بجهده، فأسلم بسببه بشر كثير»[1].

---

(١) الإصابة في معرفة الصحابة، لابن حجر (٤/٧٢٦)، وذكر أنه أخرجه موسى بن عقبة في المغازي عن ابن شهاب مرسلًا، وابن إسحاق في المغازي عن محمد بن جعفر مرسلًا أيضاً، وجاء موصولًا أخرجه ابن مندة والطبراني عن أنس، مما يدل أن للقصة أصلًا.

وغير ذلك من المحاولات التي باءت كلها بالفشل، مما يدلُّ على صدق قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧]، وهذا يدل على صدق النبي ﷺ، وأنه محفوظ من كل أذى حتى يبلغ دين اللَّه كاملاً، لذلك كان النبي ﷺ يدخل في فم الموت - كما يقال - وهو مطمئن القلب رابط الجأش، كما فعل في حنين وأحد وغيرها من المعارك، ومنع الناس من حراسته لما علم بحفظ اللَّه تعالى له، وفي حادثة الهجرة عندما طوق المشركون الغار، ولم يكن بينهم وبين النبي ﷺ إلا أن ينظر أحدهم إلى قدمه، في هذه الحال العصيبة أحس النبي ﷺ بتوتُّر أبي بكر الصديق رضي الله عنه وشدة اضطرابه وخوفه فقال له: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ [التوبة: ٤٠][1]، أيُّ ثبات هذا وأيُّ قلب يستطيع أن يهدأ في مثل هذا الموقف؟! إنها حقًا النبوة.

يقول تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

ومن هذا الباب قول اللَّه تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس: ٧١].

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المناقب، باب: علامات النبوة في الإسلام، رقم (٣٦١٥).

وقول هود عليه السلام : ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [هود: ٥٤ - ٥٦].

فالأنبياء لا يخافون لأنهم محفوظون بحفظ اللَّه تعالى لهم.

* * * * *

استجابة دعائه

كان النبي ﷺ لا يكاد يدعو بدعاء إلا استجاب اللَّه تعالى له في الحال، ولا يطلب طلبًا إلا حققه له ﷺ، وهذا لا يتم لرجل كاذب مدع مفتر، فاللَّه تعالى إنما يتقبل من المتقين ويستجيب للصادقين، والأحاديث في ذلك كثيرة جدًا لا تخفى وقد أفردت في مؤلفات، ولكني سأذكر لك موقفًا واحدًا فقط، وفيه استجابة دعائه وتسخير السحاب له ﷺ:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رجلاً دخل المسجد يوم جمعة، من باب كان نحو دار القضاء، ورسول اللَّه ﷺ قائم يخطب، فاستقبل رسول اللَّه ﷺ قائمًا ثم قال: يا رسول اللَّه هلكت الأموال وانقطعت السبل، فادع اللَّه يغيثنا. فرفع رسول اللَّه ﷺ يديه ثم قال: «اللَّهم أغثنا اللَّهم أغثنا اللَّهم أغثنا»، قال أنس: ولا واللَّه ما نرى في السماء من سحاب ولا قزعةً، وما بيننا وبين سَلْعٍ[1] من بيتٍ ولا دارٍ، قال: فطلعت من ورائه سحابةٌ مثل الترس، فلما توسطت السماء انتشرت ثم أمطرت، فلا واللَّه ما رأينا الشمس ستًّا - وفي رواية: فوالذي نفسي بيده ما وضعها حتى ثار السحاب أمثال الجبال، ثم لم ينزل عن منبره حتى رأيت المطر يتحادر على لحيته ﷺ - ثم دخل رجلٌ من ذلك الباب في الجمعة ورسول اللَّه ﷺ قائمٌ يخطب، فاستقبله قائمًا فقال: يا رسول اللَّه هلكت الأموال وانقطعت السبل، فادع اللَّه يمسكها عنا، قال: فرفع رسول اللَّه ﷺ يديه ثم قال: «اللَّهم حوالينا ولا علينا، اللَّهم على الآكام والظراب وبطون

---

(١) اسم جبل في المدينة.

الأدوية ومنابت الشجر»، قال: فما يشير بيده إلى ناحية من السحاب إلا انفرجت، فأقلعت وخرجنا نمشي في الشمس، وصارت المدينة مثل الجوبة[١]، وسال الوادي قناة شهرًا، ولم يجئ أحدٌ من ناحية إلا حدَّث بالجود[٢].

إلى غير ذلك من الأدعية الكثيرة جدًا، التي استجاب اللَّه له فيها في الحال، وهذا لا يمكن أن يتيسر لكاذب، بل لا يكون إلا لصادق مؤيد من اللَّه، فيطوع له الأسباب، ويسخر له الأمطار والسحاب، ولولا خشية الإطالة لسردت لك الأحاديث الكثيرة في هذا الباب، والمقصود التنبيه على أصل هذا النوع من الأدلة.

* * * * *

---

(١) الجوبة: الحفرة المستديرة الواسعة، وهي أيضاً فجوة ما بين البيوت. المعجم الوسيط (١/ ١٥٠) (ج وب).

(٢) متفق عليه (البخاري: كتاب الجمعة، باب: الاستسقاء في خطبة الجمعة غير مستقبل، رقم (١٠١٤)، ومسلم: كتاب صلاة الاستسقاء، باب: الدعاء في الاستسقاء، رقم (٨٩٧)).

المطلب السادس
أمور أخرى

- أمي يعلم العالم.
- إلزام اليهود والنصارى بأن إيمانهم برسلهم يلزم منه إيمانهم بنبوته ﷺ

أمّي يعلِّم العالم

من أعظم الأدلة على صدق النبي ﷺ كونه أميًا لا يقرأ ولا يكتب طيلة حياته وإلى وفاته، كما شهد بذلك التاريخ والمخالف والموافق، وكما قال ﷻ: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وقد ردَّ هذا الأمر على كثير من الشبه التي تثار، فهو ليس بكاتب محترف ولا قارئ نهم فكيف أتى بهذا العلم إلا أن يكون وحيًا من السماء.

لم يقرأ كتابًا ولم يدرس علمًا ومع هذا خرّج علماء وأئمة وعلَّم العالم أجمع.

كيف لرجل أمّي يأتي بهذا الكمِّ الهائل من المعلومات ولا تجد بينها تناقضًا ولا تعارضًا وتباينًا ولا أدنى اختلاف بل كلها تتناسب في سياق واحد وتجري في فلك، وهذا لا يكون من بشر متعلم فكيف يكون من أمي؟! ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

كيف لرجل أمي يُسأل في أي مسألة فيجيب، ويُناظِر فيغلِب ويُجادِل فيحُج ولا يحفظ عنه قول تراجع عنه أو مسألة أخطأ فيها.

أثبت هذا الأمر أنه نبي صادق حيث أخبر عن أخبار المرسلين وقصص الأولين وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب.

وردَّ هذا الأمر أيضًا على أكذوبة: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥].

ورد أيضًا على دعوى (نقله من التوراة والإنجيل).

وغير ذلك من الشبه التي تكفل هذا الدليل بنفسها.

إلزام اليهود والنصارى بأن إيمانهم برسلهم يلزم منه إيمانهم بنبوته ﷺ

وتقريره أننا لو سألنا اليهود: كيف آمنتم برسولكم موسى عليه السلام؟

فإن قالوا: بسبب معجزاته، أو أخلاقه، أو تشريعه، أو تأييد اللَّه له ونصرته، أو استجابة دعائه، أو عدم رغبته في المصلحة الذاتية، أو غير ذلك من الأدلة.

قلنا: كل ما ذكرتموه هو موجود في النبي ﷺ.

وكذلك النصارى نسألهم: هل هم يؤمنون بنبوة موسى[1] عليه السلام؟

فإن الجواب سيكون: نعم. قلنا: كيف استدللتم على نبوته؟ فإن قالوا: لأنه قد ذكره لنا عيسى.

قلنا: هل هناك دليل آخر؟

إن قالوا: لا يوجد دليل آخر على نبوة موسى عليه السلام، قلنا: إذن أنتم صَحَّحْتم مذهب مَن كفر بموسى عليه السلام من قومه؛ حيث إن موسى عليه السلام لم يأت بدليل على رسالته، ولم ينزل عيسى عليه السلام في ذلك الوقت، وأثبتم لمن آمن به أنه آمن بغير بينه ولا علم ولا دليل، وأن رسالة موسى علقت عن التصحيح قرونًا متطاولة حتى بعث اللَّه عيسى عليه السلام.

فإن قالوا: نعم، هناك أدلة أخرى على رسالة موسى عليه السلام.

قلنا: كل دليل استدللتم به على نبوة موسى عليه السلام هو موجود في محمد ﷺ.

---

(١) ولم نقل عيسى عليه السلام؛ لأنهم يرونه إلهاً لا رسولاً.

وبعد هذا فلا حجة لرجل لا يؤمن بالنبي ﷺ، ولكن صدق اللَّه إذ يقول: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٨]، يعني: ينظرون إلى النبي ﷺ ودلائل صدقه، ثم لا يبصرون كأنهم عميان[١].

* * * * *

(١) وهذا أحد معاني الآية، وقال بعض المفسرين أن المقصود بالآية هم الأصنام، فهي كأنها تنظر ولكنها لا تبصر، وبعضهم قال: إن المقصود بالآية هم المشركون - كما روي عن مجاهد وغيره - أي: وإن كانوا ينظرون إليك يا محمد ﷺ ولكنهم لا ينتفعون بالنظر والرؤية. انظر: «محاسن التأويل»، للقاسمي (٣/ ٨٦٣)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م.

المبحث الثاني

إثبات أن القرآن ليس من عند النبي

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: تفنيد القرآن لهذه الشبهة

المطلب الثاني: صفات النبي ﷺ ومواقفه التي تبطل هذه الشبهة.

المطلب الثالث: أدلة أخرى

المطلب الأول:
تفنيد القرآن لهذه الشبهة

تمهيد:

لقد زعمت فئة من الناس أن القرآن من تأليف النبي ﷺ، وهذا الطعن من أقدم الطعون وقد ذكر في القرآن كما في قوله ﷻ: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ١٠١] أي: أنك متقول على الله تعالى[١].

وكما قال ﷻ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ [الفرقان: ٤].

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [السجدة: ٣].

﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ [سبأ: ٨].

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [سبأ: ٤٣].

ولا زال الطاعنون يرددون هذه الشبهة إلى اليوم، وعامة النصارى في القديم والحديث مكذبون بأن القرآن من عند الله تعالى، وهذه بعض أقوال المُحْدَثين منهم:

---

(١) انظر: تفسير البيضاوي (٣/ ٤٢٠).

ففي دائرة المعارف الإسلامية: «القرآن ليس من عند اللّه»[١].

ويقول المستشرق ويلز[٢]: «محمد هو الذي صنع القرآن»[٣].

ويقول يوليوس فلهاوزن[٤]: «القرآن من عند محمد»[٥].

ويقول غوستاف لوبون[٦]: «القرآن من تأليف محمد»[٧].

ويقول درمنجهام[٨] - وهو يصور النبي ﷺ بالفنان أو الشاعر الذي يتأمل

---

(١) الإسقاط في مناهج المستشرقين، للدكتور شوقي أبو خليل (ص٤٧)، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١، ١٩٩٥م.

(٢) هربرت جورج ويلز (١٨٦٦ - ١٩٤٦م): الكاتب والأديب البريطاني المعروف، حصل على بكالوريوس العلوم عام ١٨٨٨م، وتولى التدريس بضع سنين ثم انصرف للتأليف، اشتهر بقصصه التي تعتمد الخيال العلمي، من مؤلفاته «معالم تاريخ الإنسانية» وغيره من الكتب، انظر: «قالوا عن الإسلام» (ص١٤٤).

(٣) معالم تاريخ الإنسانية، لويلز (٣/ ٢٦٢)، انظر: المرجع السابق (ص٤٧).

(٤) يوليوس فلهاوزن (١٨٤٤ - ١٩١٨م): مؤرخ لليهودية ولصدر الإسلام، وناقد للكتاب المقدس (العهد القديم)، ألماني نصراني، وفي سنة ١٨٧٢م سار أستاذاً ذا كرسي في جامعة جريفسلد، ثم انتقل إلى جامعة هله halle في سنة ١٨٨٢ حيث قام بتدريس اللغات الشرقية وتنقل بين عدة مناصب في العديد من الجامعات حتى تقاعد عام ١٩١٣م، ومن مؤلفاته: «تاريخ إسرائيل»، «المدينة قبل الإسلام» و«تنظيم محمد للجماعة الإسلامية»، و«تاريخ الدولة العربية»، وغيرها من المؤلفات. انظر: موسوعة المستشرقين، لبدوي (ص٤٠٨) بتصرف.

(٥) تاريخ الدولة العربية، ليوليوس فلهاوزن (ص٨)، ترجمة عن الألمانية د. محمد أبو ريدة، الألف كتاب، القاهرة، ١٩٥٨م.

(٦) غوستاف لوبون: طبيب ومؤرخ فرنسي، ولد عام ١٨٤١م، عني بالحضارات الشرقية، من آثاره: حضارة العرب، والحضارة. انظر: «قالوا عن الإسلام» (ص٨٦).

(٧) حضارة العرب، لغوستاف لوبون (ص١١١)، في فصل: تأليف القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٩٧٩م.

(٨) مستشرق فرنسي، عمل مديراً لمكتة الجزائر، من آثاره: «حياة محمد» في باريس عام (١٩٢٩)، و«محمد والسنة الإسلامية» ألفه في باري (١٩٥٥م)، انظر: قالوا عن الإسلام (ص٦٠).

الطبيعة، ثم يبدع في التأليف -: «وهذه النجوم في ليالي صيف الصحراء كثيرة شديدة البريق، حتى ليحسب المرء أنه يسمع بصيص ضوئها، وكأنه نغم نار موقدة.

حقًا إن في السماء لشارات للمدركين، وفي العالم غيب بل العالم غيب كله؛ لكن ألا يكفي أن يفتح الإنسان عينيه ليرى، وأن يرهف أذنه ليسمع، ويرى الحق ويسمع الكلم الخالد، لكنَّ للناس عيونًا لا ترى وآذانًا لا تسمع، أما هو فيحسب أنه يسمع ويرى، وهل تحتاج لكي تسمع ما وراء السماء من أصوات إلا إلى قلب مخلص مُلِيءَ إيمانًا...»[(١)].

ويقول نولدكه[(٢)]: «كانت نبوة محمد نابعة من الخيالات المتهيجة، والإلهامات المباشرة للحس أكثر من أن تأتي من التفكير النابع من العقل الناضج، فلولا ذكاؤه الكبير لما استطاع الارتقاء على خصومه، مع هذا كان يعتقد أن مشاعره الداخلية قادمة من اللَّه بدون مناقشة»[(٣)].

ومجمل أقوال المستشرقين وغيرهم من الطاعنين في الوحي الذي يوحى إليه ﷺ؛ أن هذا القرآن إنما هو:

---

(١) القرآن والمستشرقون، د. التهامي نقرة (ص٢٨).

(٢) تيودور نولدكة (١٨٣٦ - ١٩٣١م): شيخ المستشرقين الألمان غير مدافع، متقن للغات السامية الثلاث (العربية، السريانية، العبرية)، وعنده لغات أخرى كثيرة، حصل على الدكتوراه الأولى عام ١٨٥٦م برسالة عن تاريخ القرآن، وكان يبحث عن المخطوطات الشرقية ويعكف عليها لدراستها، فسافر إلى فينا ثم ليدن ثم جوتا في ألمانيا ثم برلين ثم روما، لكنه لم يرحل إلى البلاد العربية أو الإسلامية مع أن تخصصه فيها، عين في جامعة كيل أستاذاً للغات السامية، ثم تنقل بين مناصب عدة. انظر: موسوعة المستشرقين، لبدوي (ص٥٩٥).

(٣) آراء المستشرقين حول القرآن، الكريم وتفسيره، د. عمر بن إبراهيم رضوان (١/ ٣٨٧)، عن كتاب تاريخ القرآن، لنولدكة (١/ ٥).

١- إلهام سمعي.

٢- تأثير انفعالات عاطفية.

٣- لأسباب طبيعية عادية كباعثة النوم (التنويم الذاتي).

٤- تجربة ذهنية فكرية.

٥- حالة كحالة الكهنة والمنجمين.

٦- حالة صرع وهستيريا(١).

٧- يقول نصر أبو زيد - مُلَمِّحًا إلى هذا الطعن -: «القرآن ينتمي إلى ثقافة البشر»(٢).

١- رد القرآن على هذه الشبهة:

بداية؛ فقد فَصَلَ اللَّه تعالى هذه القضية بقوله: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ٣٧].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير هذه الآية: «هذا بيان لإعجاز القرآن، وأنه لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله، ولا بعشر سور ولا بسورة من مثله؛ لأنه بفصاحته وبلاغته ووجازته وحلاوته واشتماله على المعاني الغزيرة النافعة في الدنيا والآخرة؛ لا يكون إلا من عند اللَّه، الذي لا يشبهه شيء في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله وأقواله، فكلامه لا يشبه كلام

---

(١) انظر تفصيل هذه الأقوال في: كتاب آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره، د. عمر بن إبراهيم رضوان (١/ ٣٨١)، دار طيبة، الرياض، ط١، (١٩٩٢م.

(٢) مفهوم النص - دارسة في علوم القرآن، لنصر حامد أبو زيد (ص٢٧)، من إصدارات الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٠م، ضمن إصدارات ما تسمية الهيئة (دراسات أدبية).

المخلوقين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ٣٧] أي: مثل هذا القرآن لا يكون إلا من عند اللَّه، ولا يشبه هذا كلام البشر: ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: من الكتب المتقدمة، ومهيمنًا عليه ومبينًا لما وقع فيها من التحريف والتأويل والتبديل، وقوله: ﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: وبيان الأحكام والحلال والحرام بيانًا شافيًا كافيًا حق لا مرية فيه من اللَّه رب العالمين، كما في حديث الحارث الأعور عن علي بن أبي طالب: «فيه خبر ما قبلكم ونبأ ما بعدكم وفصل ما بينكم» أي: خبر عمَّا سلف وعما سيأتي وحكم فيما بين الناس بالشرع الذي يحبه اللَّه ويرضاه»[1].

«لقد علم الناس أجمعون - علمًا لا يخالطه شك - أن هذا الكتاب العزيز جاء على لسان رجل عربي أمي، ولد بمكة في القرآن السادس الميلادي، اسمه محمد بن عبد اللَّه بن عبد المطلب، صلوات اللَّه وسلامه عليه وعلى آله... هذا القدر لا خلاف فيه بين مؤمن وملحد؛ لأن شهادة التاريخ المتواتر به لا يماثلها ولا يدانيها شهادته لكتاب غيره ولا لحادث غيره ظهر على وجه الأرض.

أما بعد؛ فمن أين جاء به محمد بن عبد اللَّه ﷺ؟

أَمِنْ عند نفسه ومن وحي ضميره، أم من معلم؟ ومَن هو ذلك المعلم؟

نقرأ في هذا الكتاب أنه ليس من عمل صاحبه، وإنما هو قول رسول كريم، ذي قوة عند ذي العرش مكين، مطاع ثَمَّ أمين: ذلكم هو جبريل عليه السلام تلقاه من لدن حكيم عليم، ثم نزله بلسان عربي مبين على قلب

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٢/ ٤١٧).

نبينا محمد ﷺ، فتلقنه نبينا محمد ﷺ منه كما يتلقن التلميذ عن أستاذه نصًا من النصوص، ولم يكن له فيه من عمل بعد ذلك إلا:

الوعي والحفظ، ثم الحكاية والتبليغ، ثم البيان والتفسير، ثم التطبيق والتنفيذ.

أما ابتكار معانيه وصياغة مبانيه فما هو منها بسبيل، وليس له من أمرهما شيء، إن هو إلا وحيٌ يوحى.

هكذا سماه القرآن حيث يقول: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۚ﴾ [الأعراف: ٢٠٣]، ويقول: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ۖ﴾ [يونس: ١٥]، وأمثال هذه النصوص كثيرة في شأن إيحاء المعاني، ثم يقول في شأن الإيحاء اللفظي: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: ٢]، ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ﴾ [الأعلى: ٦]، ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: ١٦ - ١٩]، ﴿اقْرَأْ﴾ [العلق: ١]ن ﴿وَاتْلُ﴾ [الكهف: ٢٧]، ﴿وَرَتِّلِ﴾ [المزمل: ٤]، فانظر كيف عبر بالقرآن بالقراءة والإقراء، والتلاوة والترتيل، وتحريك اللسان، وكون الكلام عربيًا، وكل أولئك من عوارض الألفاظ لا المعاني البحث.

القرآن إذًا صريح في أنه «لا صنعة فيه لمحمد ﷺ، ولا لأحد من الخلق، وإنما هو منزل من عند اللّه بلفظه ومعناه»، والعجب أن يبقى بعض الناس في حاجة إلى الاستدلال على الشطر الأول من هذه المسألة، وهو أنه ليس من عند محمد ﷺ»[1].

---

(١) النبأ العظيم، للدكتور عبد اللّه دراز (ص١٤ - ١٥).

٢- عجز العرب عن معارضته:

لو كان القرآن من تأليف النبي ﷺ لاستطاع العرب أن يأتوا بمثله، مع حرصهم الشديد على معارضته، وكان النبي ﷺ يتحداهم دائمًا ويكرره عليهم كثيرًا، ومع هذا لم يطق أحد منهم معارضته، ولا يقال: إن النبي ﷺ بلغ من العبقرية مبلغًا بحيث لم يستطع أحد أن يأتي بمثل ما قال؛ لأنه يمكن للمخالفين أن يجتمعوا فيألفوا قرآنًا، ومن المعلوم أن الجماعة تبدع وتبتكر أكثر من الإنسان الواحد، فلو اجتمع مائة شاعر مثلاً لتأليف قصيدة؛ لكانت في جمالها وقوتها وسبكها أفضل بمراحل من شاعر واحد ألف قصيدة، مهما بلغ هذا الشاعر من البلاغة والبيان[١]، فإذا كان آحاد المشركين لم يستطيعوا معارضة القرآن؛ فلماذا لم يجتمعوا لمعارضته؟ ولكن هيهات؛ فإنه لو اجتمعت قريش والعرب وأهل الأرض قاطبة، بل والجن ما كانوا لهم أن يأتوا بمثل آية منه: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا﴾ [الإسراء: ٨٨].

٣- مخالفة القرآن لرأيه وطبعه ومعاتبته:

«لا أدل على أن الوحي القرآني خارج عن الذات المحمدية من مخالفة القرآن في عدة مواطن لرأيه الشخصي ولطبعه الخاص»[٢] ومعاتبته في

---

(١) ومن هذا الباب المجامع الفقهية وما فيها من اجتهاد جماعي، ومنه ما في دول الغرب من عمل لجان متخصصة في الطب والفلك والأحياء والكيمياء والكهرباء والحاسوب وغيرها من العلوم، فأثمرت هذه اللجان المتخصصة علوماً وإبداعاً، واكتشافاً لا يستطيعه الفرد الواحد مهما بلغ من فرط الذكاء وسيلان الذهن وعبقرية العقل أن يبدعه.

(٢) القرآن والمستشرقون، لنقرة (ص٣٥)، والمستشرقون وشبهاتهم حول القرآن، محمد باقر الحكيم (ص٥٠)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.

بعض المواضع:

مثل قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧ - ٦٨].

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: حدثني عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما كان يوم بدر نظر رسول اللَّه ﷺ إلى المشركين وهم ألفٌ وأصحابه ثلاث مائةٍ وتسعة عشر رجلًا، فاستقبل نبي اللَّه ﷺ القبلة ثم مد يديه، فجعل يهتف بربه اللَّهم أنجز لي ما وعدتني، اللَّهم آتِ ما وعدتني... الحديث.

وفيه: فلما أسروا الأسارى قال رسول اللَّه ﷺ لأبي بكر وعمر: «ما ترون في هؤلاء الأسارى؟» فقال أبو بكر: يا نبي اللَّه هم بنو العم والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فديةً؛ فتكون لنا قوةً على الكفار، فعسى اللَّه أن يهديهم للإسلام. فقال رسول اللَّه ﷺ: «ما ترى يا ابن الخطاب؟»، قلت: لا واللَّه يا رسول اللَّه ما أرى الذي رأى أبو بكر، ولكني أرى أن تمكنا فنضرب أعناقهم فتمكن عليًا من عقيل فيضرب عنقه، وتمكني من فلان - نسيبًا لعمر - فأضرب عنقه؛ فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها. فهوي رسول اللَّه ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يهو ما قلت، فلما كان من الغد جئت، فإذا رسول اللَّه ﷺ وأبو بكر قاعدين يبكيان قلت: يا رسول اللَّه أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك، فإن وجدت بكاءً بكيت، وإن لم أجد بكاءً تباكيت لبكائكما؟ فقال رسول اللَّه ﷺ: «أبكي للذي عرض عليَّ أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عرض عليَّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة» شجرة قريبةٍ من نبي اللَّه ﷺ، وأنزل اللَّه عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٦٧] إلى قوله: ﴿فَكُلُوا۟

﴿مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال: ٦٩] فأحلَّ اللَّه الغنيمة لهم[(١)].

«وتأمل آية الأنفال المذكورة، تجد فيها ظاهرة عجيبة؛ فإنها لم تنزل إلا بعد إطلاق أسارى بدر وقبول الفداء منهم، وقد بُدئت بالتخطئة والاستنكار لهذه الفعلة، ثم لم تلبث أن ختمت بإقرارها وتطيب النفوس بها، بل صارت هذه السابقة التي وقع التأنيب عليها هي القاعدة لما جاء بعدها[(٢)]، فهل الحال النفسية التي يصدر عنها أول الكلام - لو كان عن النفس مصدره - يمكن أن يصدر عنها أخره، ولما تمض بينهما فترة تفصل بينهما؟ كلا، وإن هذين الخاطرين لو فرض صدورهما عن النفس متعاقبين، لكان الثاني منهما إضرابًا عن الأول ماحيًا له، ولرجع آخر الفكر وفقًا لما جرى به العمل. فأيُّ داعٍ دعا إلى تصوير ذلك الخاطر الممحو وتسجيله، على ما فيه من تقريع علَني بغير حق، وتنغيص لهذه الطُّعمة[(٣)] التي يراد جعلها حلالاً طيبًا؟ إن الذي يفهمه علماء النفس من قراءة هذا النص أن هاهنا ألبتة شخصيتين منفصلتين، وأن هذا صوت سيد يقول لعبده: لقد أسأتَ ولكني عفوت عنك وأذنت لك»[(٤)].

ومثل هذا قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٣].

وقوله ﷺ: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب: الإمداد بالملائكة في غزوة بر وإباحة فداء الإسرى، رقم (١٧٦٣).

(٢) يعني: أنه يجوز لولي الأمر بعد هذه الحادثة في الأسرى أن يفدي بهم أو يمن بالمجان أو يقتلهم.

(٣) الطعمة: المكسب.

(٤) النبأ العظيم (ص٢٧).

﴿وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

عن مسروق رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «كنت متكئًا عند عائشة فسألت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: هل رأى محمد ﷺ ربه؟ فقالت: سبحان اللَّه لقد قف[1] شعري لما قلت؛ يا أبا عائشة ثلاث من تكلم بواحدةٍ منهن فقد أعظم على اللَّه الفرية، قلت: ما هنَّ؟ قالت: من زعم أن محمدًا ﷺ رأى ربه فقد أعظم على اللَّه الفرية. قال: وكنت متكئًا فجلست، فقلت: يا أم المؤمنين أنظريني ولا تعجليني ألم يقل اللَّه عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ [التكوير: ٢٣]، ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ [النجم: ١٣]، فقالت: أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول اللَّه ﷺ، فقال: «إنما هو جبريل لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين، رأيته منهبطًا من السماء سادًّا عظم خلقه ما بين السماء إلى الأرض» فقالت: أو لم تسمع أن اللَّه يقول: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]؟ أو لم تسمع أن اللَّه يقول: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى: ٥١]؟ قالت: ومن زعم أن رسول اللَّه ﷺ كتم شيئًا من كتاب اللَّه فقد أعظم على اللَّه الفرية، واللَّه يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧] ولو كان محمد ﷺ كاتمًا شيئًا مما أنزل عليه لكتم هذه الآية: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ

---

(١) قف الشعر: بروزه من الجلد عند الخوف أو الرهبة أو البرد ونحو ذلك.

وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَـٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، قالت: ومن زعم أنه يخبر بما يكون في غدٍ، فقد أعظم على اللّه الفرية، واللّه يقول: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥][١].

وعن أنس رضي الله عنه قال: جاء زيد بن حارثة يشكو فجعل النبي ﷺ يقول: «اتق اللّه وأمسك عليك زوجك»، قال أنس: لو كان رسول اللّه ﷺ كاتمًا شيئًا لكتم هذه، قال: فكانت زينب تفخر على أزواج النبي ﷺ تقول: زوَّجكن أهاليكنَّ وزوَّجني اللّه تعالى من فوق سبع سماوات»[٢].

يقول الدكتور محمد عبد اللّه دراز رحمه الله وهو يتكلم عن أدلة صدق النبي ﷺ، فذكر أن من الأدلة على ذلك: «مخالفة القرآن لطبع الرسول، وعتابه الشديد له في المسائل المباحة، وأخرى كان يجيئه القول فيها على غير ما يحبه ويهواه؛ فيخطئه في الرأى يراه، ويأذن له في الشيء لا يميل إليه... حتى في أقل الأشياء خطرًا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التحريم: ١]، ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَـٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٣]، ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣]، ﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ

---

(١) متفق عليه (البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب: تفسير سورة النجم، رقم (٤٥٧٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب: معنى قول اللّه عز وجل: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾، رقم (١٧٧))، واللفظ لمسلم.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب: وكان عرشه على الماء وهو رب العرش العظيم، رقم (٦٩٨٤).

يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧ - ٦٨]، ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ [عبس: ١ - ١٠].

أرأيت لو كانت هذه المؤاخذات صادرة عن وجدانه، معبرة عن ندمه ووخز ضميره حين بدا له خلاف ما فرط من رأيه؛ أكان يعلنها عن نفسه بهذا التهويل والتشنيع؟ ألم يكن له في السكوت عنها ستر على نفسه، واستبقاء لحرمة آرائه؟ بل إن هذا القرآن لو كان يفيض عن وجدانه، لكان يستطيع عند الحاجة أن يكتم شيئًا من ذلك الوجدان، ولو كان كاتمًا شيئًا لكتم أمثال هذه الآيات، ولكنه الوحي لا يستطيع كتمانه: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ [التكوير: ٢٤]»[١].

وقد أقرَّ بهذا الدليل بعض المستشرقين، مثل المستشرق (ليتز) حيث قال: «مرة أوحى اللَّه إلى النبي ﷺ وحيًا شديد المؤاخذة؛ لأنه أدار وجهه عن رجل فقير أعمى، ليخاطب رجلاً غنيًا من ذوي النفوذ، وقد نشر ذاك الوحي، فلو كان محمد كاذبًا - كما يقول أغبياء النصارى بحقه - لما كان لذلك الوحي من وجود»[٢].

---

(١) النبأ العظيم (ص٢٤)، وضنين: يعني ببخيل في تبليغ الوحي.

(٢) دين الإسلام، للابتنز، ترجمة: عبد الوهاب سليم (ص١٣٢)، المكتبة السلفية، دمشق، ١٤٢٣هـ، وذكر أن لايتز هو باحث إنجليزي حصل على أكثر من شهادة دكتوراه في الشريعة والفلسفة واللاهوت، زار الأستانة عام ١٨٥٤م.

٤- إخباره في هذا الكتاب بأمور تحصل بعد موته وعلوم لم تكن في حياته:

وقد قيل: يمكن أن تخدع كل الناس بعض الوقت، ويمكن أن تخدع بعض الناس كل الوقت، ولكن لا يمكن أن تخدع كل الناس كل الوقت.

فلنفرض أن النبي ﷺ استطاع أن يخدع كل من كان في زمنه، ألا يخشى أن ينكشف بعد ذلك إذا ازداد الناس علمًا، فهو يخبر بأمور فلكية وأخرى طبية وأمور جغرافية، ويخبر بأحداث سوف تقع بعد موته، ويتكلم بعلوم لم يعرفها أهل زمانه، كل هذا وهو مطمئن القلب لصدق نفسه، ثم لا يأتي الواقع إلا مطابقًا لما قال، ولا يأتي العلم - على تقدمه الكبير - إلا بتأكيد كلامه وتأييد آرائه، أليس في هذا دليل أنه لا يتحدث من قبل نفسه، بل من قبل من يعلم السر والنجوى الذي لا تخفى عليه خافية؟

قالت بوتر[١]: «كيف استطاع محمد ﷺ الرجل الأمي، الذي نشأ في بيئة جاهلية أن يعرف معجزات الكون التي وصفها القرآن الكريم، والتي لا يزال العلم الحديث حتى يومنا هذا يسعى لاكتشافها؟ لابد إذن أن يكون هذا الكلام هو كلام اللّه عز وجل»[٢].

* * * * *

(١) تقدمت ترجمتها.

(٢) قالوا عن الإسلام (ص٥٥).

المطلب الثاني:
صفات النبي ﷺ ومواقفه التي تبطل هذه الشبهة

١- تبرؤ النبي ﷺ من نسبة القرآن إليه، هو إقرار وليس إدعاء:

«تبرُّؤ محمد ﷺ من نسبة القرآن إليه ليس ادِّعاء يحتاج بينة، بل هو إقرار يؤخذ به صاحبه:

في الحقيقة إن هذه القضية لو وجدت قاضيًا يقضي بالعدل لاكتفى بسماع هذه الشهادة التي جاءت بلسان صاحبها على نفسه، ولم يطلب وراءها شهادة شاهد آخر من العقل أو النقل، ذلك أنها ليست من جنس (الدعاوى) فتحتاج إلى بينة، وإنما هي من نوع (الإقرار) الذي يؤخذ به صاحبه، ولا يتوقف صديق ولا عدو في قبوله منه، أي مصلحة للعاقل الذي يدعي لنفسه حق الزعامة، ويتحدى الناس بالأعاجيب والمعجزات لتأييد تلك الزعامة، نقول: أي مصلحة له في أن ينسب بضاعته لغيره، وينسلخ منها انسلاخًا على حين أنه كان يستطيع أن ينتحلها فيزداد بها رفعة وفخامة شأن، ولو انتحلها لما وجد من البشر أحدًا يعارضه ويزعمها لنفسه؟

الذي نعرفه أن كثيرًا من الأدباء يسطون على آثار غيرهم، فيسرقونها أو يسرقون منها ما خفَّ حمله وغلت قيمته وأُمنت تهمته، حتى إن منهم من ينبش قبور الموتى، ويلبس من أكفانهم ويخرج على قومه في زينة من تلك الأبواب المستعارة؛ أمَّا أن أحدًا ينسب لغيره أَنفس آثار عقله، وأغلى ما تجود به قريحته فهذا ما لم يلده الدهر بعد»[1].

---

(١) النبأ العظيم، للدكتور عبد الله دراز (ص١٦).

٢- موقف النبي ﷺ من النص القرآني:

موقف الرسول ﷺ من النص القرآني موقف المفسر الذي يتلمس الدلالات، ويأخذ بأرفق احتمالاتها:

«وأنت لو نظرت في هذه الأمور التي وقع العتاب عليها، لوجدتها تنحصر في شيء واحد، وهو أنه ﷺ كان إذا ترجح بين أمرين ولم يجد فيهما إثمًا، اختار أقربهما إلى رحمة أهله وهداية قومه وتأليف خصمه، وأبعدهما عن الغلظة والجفاء، وعن إثارة الشبه في دين اللَّه، لم يكن بين يديه نص فخالفه كفاحًا، أو جاوزه خطأ ونسيانًا، بل كل ذنبه أنه مجتهد بذل وسعه في النظر، ورأى نفسه مخيرًا فتخير. هَبْهُ مجتهدًا أخطأ باختيار خلاف الأفضل، أليس معذورًا ومأجورًا؟ على أن الذي اختاره كان هو خير ما يختاره ذو حكمة بشرية وإنما نبهه القرآن إلى ما هو أرجح في ميزان الحكمة الإلهية، هل ترى في ذلك ذنبًا يستوجب عند العقل هذا التأنيب والتثريب؟ أم هو مقام الربوبية ومقام العبودية، وسنة العروج بالحبيب في معارج التعليم والتأديب؟

توفي عبد اللَّه بن أُبيٍّ كبير المنافقين، فكفَّنه النبي ﷺ في ثوبه وأراد أن يستغفر له ويصلي عليه، فقال عمر رضي الله عنه: أتصلي عليه وقد نهاك ربك؟ فقال ﷺ: «إنما خيرني ربي فقال: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ [التوبة: ٨٠] وسأزيده على السبعين»، وصلى عليه، فأنزل اللَّه تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ [التوبة: ٨٤] فترك الصلاة عليهم»[١]؛ اقرأ هذه القصة الثابتة برواية الصحيحين، وانظر

(١) متفق عليه (البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب: قوله: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾، رقم (٤٣٩٣)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب: من فضائل عمر، رقم (٢٤٠٠)).

ماذا ترى؟ إنها لتمثل لك نفس هذا العبد الخاضع، وقد اتخذ من القرآن دستورًا، يستملي أحكامه من نصوصه الحرفية، وتمثل لك قلب هذا البشر الرحيم وقد آنس من ظاهر النص الأول تخييرًا له بين طريقين، فسرعان ما سلك أقربهما إلى الكرم والرحمة، ولم يلجأ إلى الطريق الآخر إلا بعدما جاءه النص الصريح بالمنع. وهكذا كلما درست مواقف الرسول من القرآن في هذه المواطن أو غيرها، تجلَّى لك فيه معنى العبودية الخاضعة، ومعنى البشرية الرحيمة الرقيقة؛ وتجلَّى لك في مقابل ذلك من جانب القرآن معنى القوة التي لا تتحكم فيها البواعث والأغراض، بل تصدع بالبيان فرقانًا بين الحق والباطل، وميزانًا للخبيث والطيب، أحبَّ الناس أم كرهوا، رضوا أم سخطوا، آمنوا أم كفروا، إذ لا تزيدها طاعة الطائعين ولا تنقصها معصية العاصين، فترى بين المقامين ما بينهما، وشتان ما بين سيد ومسود، وعابد ومعبود»[١].

٣- مواقف تحفزه للقول على الله ولكن لا يفعل:

«في بعض المواقف تكون حاجة النبي ﷺ إلى القرآن شديدة، بل لقد كانت تنزل به نوازل من شأنها أن تحفزه إلى القول، وكانت حاجته القصوى تلح عليه أن يتكلم، بحيث لو كان الأمر إليه لوجد له مقالاً ومجالاً، ولكنه كانت تمضي الليالي والأيام تتبعها الليالي والأيام، ولا يجد في شأنها قرآنًا يقرؤه على الناس؛ ومع هذا لم يتقوله ولم ينزل عليه شيء»[٢]، مما يدلك على صدقه؛ إذ الكاذب لا يتأخر في افتراء الكذب

---

(١) النبأ العظيم (ص٢٨ - ٣٠).

(٢) آراء المستشرقين، لرضوان (١/ ٣٨٨).

عند الحاجة الماسة إليه، وإليك بعض الأمثلة على ذلك:

أ- عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بعثت قريش النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط غلى أحبار يهود بالمدينة، فقالوا لهم: سلوهم عن محمد، وصفوا لهما صفته، وأخبروهم بقوله؛ فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء، فخرجا حتى أتيا المدينة فسألوا أحبار يهود عن رسول اللَّه ﷺ، ووصفوا لهم أمره وبعض قوله وقالا: إنكم أهل التوراة، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا. قال: فقالوا لهم: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل وإلا فرجل متقوِّل فتروا فيه رأيكم؛ سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم، فإنهم قد كان لهم حديث عجب، وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه، وسلوه عن الروح ما هو؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه، وإن لم يخبركم فإنه رجل متقوِّل فاصنعوا في أمره ما بدا لكم. فأقبل النضر وعقبة حتى قدما على قريش، فقالا: يا معشر قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد، قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور. فأخبروهم بها فجاؤوا رسول اللَّه ﷺ، فقالوا: يا محمد أخبرنا فسألوه عمَّا أمروهم به، فقال لهم رسول اللَّه ﷺ: «أخبركم غدًا عمَا سألتم عنه» ولم يستثن فانصرفوا عنه ومكث رسول اللَّه ﷺ خمس عشرة ليلة، لا يُحْدِثُ اللَّه له في ذلك وحيًا، ولا يأتيه جبرائيل عليه السلام حتى أرجف أهل مكة، وقالوا: وعدنا محمد غدًا، واليوم خمس عشرة قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشيء عمَّا سألناه عنه، وحتى أحزن رسول اللَّه ﷺ مُكْثُ الوحي عنه، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة، ثم جاءه جبرائيل عليه السلام من اللَّه عز وجل بسورة أصحاب الكهف، فيها معاتبته إياه على

حزنه عليهم، وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية، والرجل الطواف، وقول اللَّه ﷻ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ﴾ [الإسراء: ٨٥][(١)].

ب- فترة الوحي في حادث الإفك[(٢)]:

«الم يرجف المنافقون بحديث الإفك عن زوجه عائشة ﵂ وأبطأ الوحي، وطال الأمر والناس يخوضون، حتى بلغت القلوب الحناجر، وهو لا يستطيع إلا أن يقول بكل تحفظ واحتراس: «إني لا أعلم عنها إلا خيرًا» ثم إنه بعد بذل جهده في التحري والسؤال واستشارة الأصحاب، ومضى شهر بأكمله، والكل يقولون ما علمنا عليها من سوء، لم يزد على أن قال لها آخر الأمر: «يا عائشة أما إنه بلغني كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك اللَّه، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري اللَّه».

هذا كلامه بوحي ضميره، وهو كما ترى كلام البشر الذي لا يعلم الغيب، وكلام الصدِّيق المتثبت الذي لا يظن ولا يقول ما ليس له به علم، على أنه لم يغادر مكانه بعد أن قال هذه الكلمات حتى نزل صدر سورة النور معلنًا براءتها، ومصدرًا الحكم المبرم بشرفها وطهارتها.

فماذا كان يمنعه - لو أن أمر القرآن إليه - أن يتقول هذه الكلمات الحاسمة من قبل؛ ليحمي بها عرضه، ويذب بها عن عرينه، وينسبها إلى الوحي السماوي، لتنقطع ألسنة المتخرصين؟ ولكنه ما كان ليذر الكذب على

---

(١) قال السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٣٥٧): أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وأبو نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل.

(٢) متفق عليه عن عائشة ﵂: (البخاري: كتاب الشهادات، باب: تعديل النساء بعضهن بعضاً، رقم (٢٥١٨)، ومسلم: كتاب التوبة، باب: في حديث الإفك وقبول توبة القاذف، رقم (٢٧٧٠)).

الناس ويكذب على اللَّه: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٧]»[١].

ج - لقد كان النبي ﷺ يتحرق شوقًا إلى تحويل القبلة إلى الكعبة، وظل يقلب وجهه في السماء ستة عشر شهرًا أو سبعة عشر شهرًا، لعل الوحي ينزل عليه بتحويل القبلة إلى البيت الحرام، ولكن اللَّه تعالى لم ينزل في هذا التحويل قرآنًا، على الرغم من تلهف رسوله الكريم ﷺ إليه إلا بعد قرابة عام ونصف العام[٢].

عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: كان رسول اللَّه ﷺ صلى نحو بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهرًا، وكان رسول اللَّه ﷺ يحب أن يوجه إلى الكعبة، فأنزل اللَّه: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ١٤٤] فتوجه نحو الكعبة...[٣].

ولو كان الوحي من تأليف النبي ﷺ، لما تأخر كل هذه المدة لشيء يحبه ويشتهيه ويتشوف إليه ويتحرق شوقًا له، ولكنه وحي اللَّه ولا ينزل إلا بأمر اللَّه وإذنه.

٤- توقف النبي ﷺ في فهم مغزى النص القرآني:

«لقد كان يجيئه الأمر أحيانًا بالقول المجمل، أو الأمر المشكل الذي لا يستبين هو ولا أصحابه تأويله، حتى ينزل اللَّه عليهم بيانه بعد. قل لي

---

(١) النبأ العظيم (ص٢٠).

(٢) المستشرقون وشبهاتهم حول القرآن، للحكيم (ص٥٦).

(٣) متفق عليه (البخاري: كتاب الصلاة، باب: التوجه نحو القبلة حيث كان، رقم (٣٩٩)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب: تحويل القبلة من القدس إلى الكعبة، رقم (٥٢٥)).

بربك: أي عاقل توحي إليه نفسه كلامًا لا يفهم هو معناه، وتأمره أمرًا لا يعقل هو حكمته؟

أليس ذلك من الأدلة الواضحة على أنه ناقل لا قائل، وأنه مأمور لا آمر؟

وإليك بعض هذه الأمثلة:

المثال الأول: موقفه في قضية المحاسبة على النيات:

نزل قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤] فأزعجت الصحابة إزعاجًا شديدًا، وداخل قلوبهم منها شيء لم يدخلها من شيء آخر؛ لأنهم فهموا منها أنهم سيحاسبون على كل شيء حتى حركات القلوب وخطراتها؛ فقالوا: يا رسول اللَّه! أنزلت علينا هذه الآية ولا نطيقها، فقال لهم النبي ﷺ: «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير»، فجعلوا يتضرعون بهذه الدعوات حتى أنزل اللَّه بيانها بقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] إلى آخر السورة المذكورة(١)، وهنالك علموا أنهم إنما يحاسبون على ما يطيقون من شأن القلوب، وهو ما كان من النيات المكسوبة والعزائم المستقرة، لا من الخواطر والأماني الجارية على النفس بغير اختيار. وموضع الشاهد منه أن النبي ﷺ لو كان يعلم تأويلها من أول الأمر لبيَّن لهم خطأهم وهم في أشد الحاجة إليه، ولم يكن ليتركهم لهذا الهلع الذي كاد يخلع قلوبهم وهو بهم رؤوفٌ رحيم، ولكنه كان مثلهم ينتظر تأويلها، ولأمرٍ ما أخر اللَّه عنهم هذا البيان، ولأمرٍ ما وضع حرف التراخي في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٩].

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب: بيان أنه - سبحانه - لا يكلف إلا الوسع، رقم (١٢٥).

المثال الثاني: مسلكه في قضية الحديبية:

اقرأ في صحيح البخاري(١) وغيره قضية الحديبية، ففيها آية بينة: أذن اللَّه للمؤمنين أن يقاتلوا من يعتدي عليهم أينما وجدوه، غير ألا يقاتلوا في الحرم من لم يقاتلهم فيه نفسه، فقال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٠] فلما أجمعوا زيارة البيت الحرام في ذلك العام وهو العام السادس من الهجرة أخذوا أسلحتهم حذرًا أن يقاتلهم أحد فيدافعوا عن أنفسهم الدفاع المشروع، ولما أشرفوا على حدود الحرم علموا أن قريشًا قد جمعت جموعها على مقربة منهم، فلم يثن ذلك من عزمهم؛ لأنهم كانوا على تمام الأُهبة، بل زادهم ذلك استبسالاً وصمموا على المضي إلى البيت، فمن صدهم عنه قاتلوه، وكانت قريش قد نهكتها الحروب، فكانت البواعث كلها متضافرة والفرصة سانحة للالتحام في موقعة فاصلة يتمكن فيها الحق من الباطل فيدمغه. وإنهم لسائرون عند الحديبية إذ بَرَكت راحلة النبي ﷺ وأخذ أصحابه يثيرونها إلى جهة الحرم فلا تثور، فقالوا: خلأت القصواء - أي: حرنت الناقة - فقال النبي ﷺ: «ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل» يعني: أن اللَّه الذي اعتقل الفيل ومنع أصحابه من دخول مكة محاربين، هو الذي اعتقل هذه الناقة ومنع جيش المسلمين من دخولها الآن عنوة. وهكذا أيقن أن اللَّه تعالى لم يأذن لهم في هذا العام بدخول مكة مقاتلين، لا بادئين ولا مكافئين، وزجر الناقة فثارت إلى ناحية أخرى، فنزل باصحابه في أقصى

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الشروط، باب: الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب، رقم (٢٥٨٣).

الحديبية، وعدل بهم عن متابعة السير امتثالاً لهذه الإشارة الإلهية، التي لا يعلم حكمتها، وأخذ يسعى لدخول مكة من طريق الصلح مع قريش قائلاً، «والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات اللّه إلا أعطيتهم إياها» ولكن قريشًا أبت أن يدخلها في هذا العام لا محاربًا ولا مسالمًا، وأملت عليه شروطًا قاسية بأن يرجع من عامه، وأن يرد كل رجل يجيئه من مكة مسالمًا، وألا تردَّ هي أحدًا يجيئها من المدينة تاركًا لدينه، فقبل تلك الشروط التي لم يكن ليمليها مثل قريش في ضعفها على مثل المؤمنين في قوتهم، وأمر أصحابه بالتحلل من عمرتهم وبالعودة من حيث جاؤوا. فلا تسل عمَّا كان لهذا الصلح من الوقع السيِّئ في نفوس المسلمين، حتى إنهم لما جعلوا يحلقون بعضهم لبعض كاد يقتل بعضهم بعضًا ذهولاً وغمًا، وكادت تزيغ قلوب فريق من كبار الصحابة فأخذوا يتساءلون فيما بينهم ويراجعونه هو نفسه قائلين: لِمَ نعطي الدنيَّة في ديننا؟ أفلم يكن من الطبيعي إذَّاك لو كان هذا القائد هو الذي وضع هذه الخطة بنفسه أو اشترك في وضعها أو وقف على أسرارها أن يبين لكبار الصحابة حكمة هذه التصرفات التي فوق العقول، حتى يطفئ نار الفتنة قبل أن يتطاير شررها؟ ولكن انظر كيف كان جوابه حين راجعه عمر: «إني رسول اللّه، ولست أعصيه، وهو ناصري» يقول: إنما أنا عبد مأمور ليس لي من الأمر شيء إلا أن أنفذ أمر مولاي واثقًا بنصره قريبًا أو بعيدًا، وهكذا ساروا راجعين وهم لا يدرون تأويل هذا الإشكال حتى نزلت سورة الفتح، فبينت لهم الحِكَم الباهرة والبشارات الصادقة فإذا الذي ظنوه ضيمًا وإجحافًا في بادئ الرأي كان هو النصر المبين والفتح الأكبر وأين تدبير البشر من تدبير القدر؛ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ

عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ٢٤- ٢٧]»[١].

٥- منهجه في تلقي النص أول عهده بالوحي[٢]:

«ولقد كان حين ينزل عليه القرآن في أول عهده بالوحي يتلقفه متعجلاً، فيحرك به لسانه وشفتيه طلبًا لحفظه، وخشية ضياعه من صدره، ولم يكن ذلك معروفًا من عادته في تحضير كلامه، لا قبل دعواه النبوة ولا بعدها، ولا كان ذلك من عادة العرب، إنما كانوا يزورون كلامهم في أنفسهم، فلو كان القرآن منبجسًا من معين نفسه لجرى على سنة كلامه وكلامهم ولكان له من الرويَّة والأناة الصامتة ما يكفل له حاجته؛ من إنضاج الرأي، وتمحيص الفكرة، ولكنه كان يرى نفسه أمام تعليم يفاجئه وقتيًا ويلم به سريعًا، بحيث لا تجدي الرويَّة شيئًا في اجتلابه لو طلب، ولا في تداركه واستذكاره لو ضاع منه شيء، وكان عليه أن يعيد كل ما يلقى

(١) النبأ العظيم (ص٣٠ - ٣٤).

(٢) المستشرقون وشبهاتهم حول القرآن، للحكيم (ص٥٢).

إليه حرفيًا، فكان لابد له في أول عهده بتلك الحال الجديدة التي لم يألفها من نفسه أن يكون شديد الحرص على المتابعة الحرفية، حتى ضمن اللّه له حفظه وبيانه بقوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ [القيامة: ١٦]، وقوله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

هذا طرفٌ من سيرته بإزاء القرآن، وهي شواهد ناطقة بصدقه في أن القرآن لم يصدر عنه بل ورد إليه، وأنه لم يفض عن قلبه بل أفيض عليه»[١].

٦- عجزه البشري عن الإتيان بمثل هذا القرآن:

أليس يكفي للحكم ببراءة الإنسان من عمل من الأعمال أن يقوم من الطبيعة شاهدٌ بعجزه المادي عن إنتاج ذلك العمل؟

فلينظر العاقل: هل كان هذا النبي الأمي ﷺ أهلاً بمقتضى وسائله العلمية لأن تجيش نفسه بتلك المعاني القرآنية؟

سيقول الجهلاء من الملحدين: نعم. فقد كان له من ذكائه الفطري وبصيرته النافذة ما يؤهله لإدراك الحق والباطل من الآراء، والحسن القبيح من الأخلاق، والخير والشر من الأفعال، حتى لو أن شيئًا في السماء تناله الفراسة، أو تلهمه الفطرة، أو توحي به الفكرة، لتناوله محمد بفطرته السليمة وعقله الكامل وتأملاته الصادقة.

ونحن قد نؤمن بأكثر مما وصفوا من شمائله، ولكننا نسأل: هل كل ما في القرآن مما يستنبطه العقل والتفكير، ومما يدركه الوجدان والشعور؟ اللّهم كلا.

طبيعة المعاني القرآنية ليست كلها مما يدرك بالذكاء وصدق الفراسة فمن ذلك:

---

(١) النبأ العظيم (ص٣٤).

أ- أنباء الماضي لا سبيل إليها إلا بالتلقي والدراسة:

ففي القرآن جانب كبير من المعاني النقلية البحتة، التي لا مجال فيها للذكاء والاستنباط، ولا سبيل إلى علمها لمن غاب عنها إلا بالدراسة والتلقي والتعلم؛ ماذا يقولون فيما قصه علينا القرآن من أنباء ما قد سبق وما فصله من تلك الأنباء على وجهه الصحيح كما وقع؟ ايقولون: إن التاريخ يمكن وضعه أيضًا بإعمال الفكر ودقة الفراسة؟ أم يخرجون إلى المكابرة العظمى فيقولون إن محمدًا قد عاصر تلك الأمم الخالية، وتنقل فيها فشهد هذه الوقائع مع أهلها شهادة عيان، أو أنه ورث كتب الأولين وعكف على دراستها حتى أصبح من الراسخين في علم دقائقها؟ إنهم لا يسعهم أن يقولوا هذا ولا ذاك؛ لأنهم معترفون مع العالم كله بأنه ﷺ لم يكن من أولئك ولا من هؤلاء: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٤٤]، ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢]، ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ [القصص: ٤٤]، ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ [هود: ٤٩]، ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [يوسف: ٣].

لا نقول: إن العلم بأسماء بعض الأنبياء والأمم الماضية، وبمجمل ما جرى من حوادث التدمير في ديار عاد وثمود وطوفان نوح وأشباه ذلك لم يصل قط إلى الأميين؛ فإن هذه النتف اليسيرة قلما تعزب عن أحد من أهل البدو أو الحضر؛ لأنها مما توارثته الأجيال وسارت به الأمثال، وإنما الشأن في تلك التفاصيل الدقيقة والكنوز المدفونة في بطون الكتب،

فذلك هو العلم النفيس الذي لم تنله يد الأميين، ولم يكن يعرفه إلا القليل من الدارسين، وإنك لتجد الصحيح المفيد من هذه الأخبار محررًا في القرآن، حتى الأرقام طبق الأرقام؛ فترى - مثلاً - في قصة نوح عليه السلام في القرآن أنه لبث في قومهم الف سنة إلا خمسين عامًا، وفي سفر التكوين من التوراة أنه عاش تسعمائة وخمسين سنة، وترى فيث قصة أصحاب الكهف عند أهل الكتاب أنهم لبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنة شمسية، وفي القرآن أنهم لبثوا في كفهم: ﴿ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا﴾ [الكهف: ٢٥] وهذه السنون التسع هي فرق ما بين عدد السنين الشمسية والقمرية؛ قاله الزجاج يعني: بتكميل الكسر.

فانظر إلى هذا الحساب الدقيق في أمة أمية لا تكتب ولا تحسب.

كَفَاكَ بِالْعِلْمِ فِي الأُمِّي مُعْجِزَةً ... فِي الجَاهِلِيَّةِ والتَّأْدِيبِ فِي اليُتْمِ

نعم إنها لعجيبة حقًا: رجل أمي بين أظهر قوم أميين، يحضر مشاهدهم - في غير الباطل والفجور - ويعيش معيشتهم مشغولاً برزق نفسه وزوجه وأولاده، راعيًا بالأجر، لا صلة له بالعلم والعلماء؛ يقضي في هذا المستوى أكثر من أربعين سنة من عمره، ثم يطلع علينا فيما بين عشية وضحاها، فيكلمنا بما لا عهد له به في سالف حياته، وبما لم يتحدث إلى أحد بحرف واحد منه قبل ذلك، ويبدي لنا من أخبار تلك القرون الأولى ما أخفاه أهل العلم في دفاترهم وقماطرهم؟ أفي مثل هذا يقول الجاهلون: إنه استوحى عقله واستلهم ضميره؟ أي منطق يسوغ أن يكون هذا الطور الجديد العملي نتيجة طبيعة لتلك الحياة الماضية الأمية؟ إنه لا مناص في قضية العقل من أن يكون لهذا الانتقال الطفري سرٌّ آخر يُلتمس خارجًا عن حدود النفس وعن دائرة المعلومات القديمة، وإن ملاحدة

الجاهلية وهم أجلاف الأعراف في البادية كانوا في الجملة أصدق تعليلاً لهذه الظاهرة، وأقرب فهمًا لهذا السر من ملاحدة هذا العصر، إذ لم يقولوا كما قال هؤلاء: إنه استقى هذه الأخبار من وحي نفسه، بل قالوا: إنه لابد أن تكون قد أمليت عليه منذ يومئذ علوم جديدة؛ فدرس منها ما لم يكن قد درس، وتعلم ما لم يكن يعلم: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ﴾ [الأنعام: ١٠٥]، ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥].

ولقد صدقوا؛ فإنه درسها، ولكن على أستاذه الروح الأمين، واكتتبها[١]، ولكن من صحفٍ مكرمةٍ مرفوعةٍ مطهرةٍ، بأيدي سفرةٍ كرامٍ بررة: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٦].

ذلك شأن ما في القرآن من الأنباء التاريخية، لا جدال في أن سبيلها النقل لا العقل، وأنها تجيء من خارج النفس لا من داخلها.

أما سائر العلوم القرآنية فقد يقال: إنها من نوع ما يدرك بالعقل، فيمكن أن ينالها الذكي بالفراسة والرويَّة. وهذا كلام قد يلوح حقًا في بادئ الرأي، ولكنه لا يلبث أن ينهار أمام الاختبار، ذلك أن العقول البشرية لها في إدراك الأشياء طريق معين تسلكه، وحدٌّ محدود تقف عنده ولا تتجاوزه، فكل شيء لم يقع تحت الحس الظاهر أو الباطن مباشرة، ولم يكن مركوزًا في غريزة النفس؛ إنما يكون إدراك العقول إياه عن طريق مقدمات

---

(١) دراز لا يقصد أن النبي ﷺ كان يكتب، ولكن هو أسلوب بلاغي يقصد به إفحام الخصم بالتسليم له.

معلومة توصل إلى ذلك المجهول، إما بسرعة كما في الحَدْسِ[1]، وإما ببطء كما في الاستدلال والاستنباط والمقايسة[2]، وكل ما لم تمهد له هذه الوسائل والمقدمات لا يمكن أن تناله يد العقل بحال، وإنما سبيله الإلهام، أو النقل عمَّا جاءه ذلك الإلهام.

فهل ما في القرآن من المعاني غير التاريخية كانت حاضرة الوسائل والمقدمات في نظر العقل؟

ذلك ما سيأتي نبأه بعد حين، ولكننا نعجل لك الآن بمثالين من تلك المعاني نكتفي بذكرهما هنا عن إعادتهما بعد:

أحدهما: قسم العقائد الدينية.

والثاني: قسم النبوءات الغيبية.

ب- الحقائق الدينية الغيبية لا سبيل للعقل إليها:

فأما أمر الدين فإن غاية ما يجتنيه العقل من ثمرات بحثه المستقل فيه، بعد معاونة الفطرة السليمة له؛ هو أن يعلم أن فوق هذا العالم إلهًا قاهرًا دبَّره، وأنه لم يخلقه باطلاً؛ بل وضعه على مقتضى الحكمة والعدالة؛ فلابد أن يعيده كرةً أخرى لينال كل عامل جزاء عمله، إن خيرًا وإن شرًا.

هذا هو كل ما يناله العقل الكامل من أمر الدين، ولكن القرآن لا يقف في جانبه عند هذه المرحلة؛ بل نراه يشرح لنا حدود الإيمان مفصلة، ويصف لنا بدء الخلق ونهايته، ويصف الجنة وأنواع نعيمها، والنار وألوان عذابها، كأنهما رأي عين، حتى إنه ليحصي عدة الأبواب، وعدة الملائكة الموكلة

---

(١) الحدس: الظن والتخمين.

(٢) المقايسة: القياس، وهو الاستدلال على الشيء بمثيله أو شبيهه.

بتلك الأبواب، فعلى أي نظرية عقلية بنيت هذه المعلومات الحسابية، وتلك الأوصاف التحديدية؟ إن ذلك ما لا يوحي به العقل البتة، بل هو إما باطل فيكون من وحي الخيال والتخمين، وإما حق فلا ينال إلا بالتعليم والتلقين، لكنه الحق الذي شهدت به الكتب واستيقنه أهلها: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ﴾ [المدثر: ٣١]، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢]، ﴿مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [ص: ٦٩]، ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ٣٧].

ج - أنباء المستقبل قد تستنبط بالمقايسة الظنية، ولكنها لا سبيل فيها لليقين إلا بالوحي الصادق:

وأما النبوءات الغيبية فهل تعرف كيف يحكم فيها ذو العقل الكامل؟ إنه يتخذ من تجاربه الماضية مصباحًا يكشف على ضوئه بضع خطوات من مجرى الحوادث المقبلة، جاعلًا الشاهد من هذه مقياسًا للغائب من تلك، ثم يصدر فيها حكمًا محاطًا بكل تحفظ وحذر، قائلًا: «ذلك ما تقضي به طبيعة الحوادث لو سارت الأمور على طبيعتها، ولم يقع ما ليس في الحسبان»، أما أن يبتَّ الحكم بتًا، ويحدده تحديدًا، حتى فيما لا تدل عليه مقدمة من المقدمات العلمية، ولا تلوح منه أمارة من الأمارات الظنية العادية؛ فذلك ما لا يفعله إلا أحد رجلين:

إما رجل مجازف لا يبالي أن يقول الناس فيه: صَدَقَ أو كَذَبَ، وذلك هو دأب جهلاء المتنبئين من العرافين والمنجمين.

وإما رجل اتخذ عند اللَّه عهدًا فلن يخلف اللَّه عهده، وتلك هي سنة

الأنبياء والمرسلين، ولا ثالث لهما إلا رجلاً روى أخباره عن واحد منهما.

فأي الرجلين تراه في صاحب هذا القرآن حينما يجيء على لسانه الخبر الجازم بما سيقع بعد عام وما سيقع في أعوام، وما سيكون أبد الدهر، وما لن يكون أبد الدهر؟ ذلك وهو لم يتعاط علم المعرفة والتنجيم، ولا كانت أخلاقه كأخلاقهم تمثل الدعوى والتقحم، ولا كانت أخباره كأخبارهم خليطًا من الصدق والكذب، والصواب والخطأ. بل كان مع براءته من علم الغيب وقعوده عن طلبه وتكلفه، يجيئه عفوًا ما تعجز صروف الدهر وتقلباته في الأحقاب المتطاولة أن تنقض حرفًا واحدًا مما ينبئ به: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١ - ٤٢].

ولنسرد لك هاهنا بعض النبوءات القرآنية مع بيان شيء من ملابساتها التارخية؛ لترى هل كانت مقدماتها القريبة أو البعيدة حاضرة فتكون تلك النبوءات من جنس ما توحي به الفراسة والألمعية؟

مثال ذلك:

ما جاء في بيان أن هذا الدين قد كتب اللّه له البقاء والخلود، وأن هذا القرآن قد ضمن اللّه حفظه وصيانته: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧]، ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝٢٤ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: ٢٤ - ٢٥]، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]. أتعلم متى وأين صدرت هذه البشارات المؤكدة، بل العهود الوثيقة؟ إنها آيات مكية من سور مكية، وأنت قد تعرف ما أمر الدعوة المحمدية في مكة؟ عشر سنوات كلها

إعراض من قومه عن الاستماع لقرآن، وصد لغيرهم عن الإصغاء له، واضطهاد وتعذيب لتلك الفئة القليلة التي آمنت به، ثم مقاطعة له ولعشيرته ومحاصرتهم مدة غير يسيرة في شِعب من شِعاب مكة، ثم مؤامرات سرية أو علنية على قتله أو نفيه، فهل للمرء أن يلمح في ثنايا هذا الليل الحالك - الذي طوله عشرة أعوام - شعاعًا ولو ضئيلاً من الرجاء أن يتنفس صبحه عن الإذن لهؤلاء المظلومين برفع صوتهم وإعلان دعوتهم[1]؟ ولو شام المصلح تلك البارقة من الأمل في جوانب نفسه من طبيعة دعوته، لا في أفق الحوادث، فهل يتفق له في مثل هذه الظروف أن يربوا في نفسه الأمل حتى يصير حكمًا قاطعًا؟ وهَبْهُ امتلأ رجاء بظهور دعوته في حياته ما دام يتعهدها بنفسه، فمن يتكفل له بعد موته ببقاء هذه الدعوة وحمايتها وسط أمواج المستقبل العاتية؟ وكيف يجيئه اليقين في ذلك، وهو يعلم من عبر الزمان ما يفتُّ في عضد هذا اليقين؟ فكم من مصلح صرخ بصيحات الإصلاح، فما لبثت أصواته أن ذهبت أدراج الرياح! وكم من مدينة قامت في التاريخ ثم عفت ودرست آثارها! وكم من نبي قتل! وكم من كتابٍ فقد أو انتقص أو بدل! وهل كان محمد ﷺ ممن تستخفه الآمال فيجري مع الخيال؟ إنه ما كان قبل نبوته يطمع في أن يكون نبيًا يوحى إليه: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦]، ولا كان بعد نبوته يضمن لنفسه أن يبقى هذا الوحي محفوظًا لديه: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾

(١) وتوجت قريش في ختام العشر القرار النهائي لاغتياله وإسدال الستار على دعوته، ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

[الإسراء: ٨٦ - ٨٧]؛ فلابد إذًا من كفيل بهذا الحفظ من خارج نفسه، ومن ذا الذي يملك هذا الضمان على الدهر المتقلب المملوء بالمفاجآت؟ إلا رب الدهر الذي بيده زمام الحوادث كلها، والذي قدَّر مبدأها ومنتهاها، وأحاط علمًا بمجراها ومرساها، فلولا فضل اللَّه ورحمته الموعود بهما في الآية الآنفة، لما استطاع القرآن أن يقاوم تلك الحروب العنيفة التي أقيمت ولا تزال تقام عليه بين آن وآن. سل التاريخ: كم مرةٍ تنكر الدهر لدول الإسلام، وتسلط الفجار على المسلمين، فأثخنوا فيهم القتل، وأكرهوا أممًا منهم على الكفر، وأحرقوا الكتب، وهدموا المساجد، وصنعوا ما كان يكفي القليل منه لضياع هذا القرآن كلاًّ أو بعضًا كما فعل بالكتب قبله؛ لولا أن يد العناية تحرسه، فبقي في وسط هذه المعامع رافعًا راياته وأعلامه، حافظًا آياته وأحكامه، بل اسأل صحف الأخبار اليومية كم من القناطير المقنطرة من الذهب والفضة تنفق في كل عام لمحو هذا القرآن، وصد الناس عن الإسلام بالتضليل والبهتان والخداع والإغراء ثم لا يظفر أهلها من وراء ذلك إلا بما قال اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦]، ذلك بأن الذي يمسكه أن يزول هو الذي يمسك السماوات والأرض أن تزولا، ذلك بأن اللَّه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣]، واللَّه بالغ أمره ومتم نوره، فظهر وسيبقى ظاهرًا لا يضره من خالفه حتى يأتي أمر اللَّه»[١].

(١) النبأ العظيم (ص٣٨ - ٤٧).

المطلب الثالث:
أدلة أخرى

١- نسبة محمد ﷺ القرآن للَّه لا تكون احتيالاً منه لبسط نفوذه، وإلا لِمَ لَمْ ينسب أقواله إلى اللَّه(١):

«ولم أننا افترضناه افتراضًا لما عرفنا له تعليلاً معقولاً ولا شبه معقول، اللَّهم إلا شيئًا واحدًا قد يحيك في صدر الجاهل، وهو أن يكون هذا الزعيم قد رأى أن «نسبته القرآن إلى الوحي الإلهي» ما يعينه على استطلاح الناس باستيجاب طاعته عليهم، ونفاذ أمره فيهم؛ لأن تلك النسبة تجعل لقوله من الحرمة والتعظيم ما لا يكون له لو نسبه إلى نفسه.

وهذا قياس فاسد في ذاته، فاسد في أساسه؛ أما أنه فاسد في ذاته، فلأن صاحب هذا القرآن قد صدر عنه الكلام المنسوب إلى نفسه والكلام المنسوب إلى اللَّه تعالى فلم تكن نسبة ما نسبه إلى نفسه بناقصةٍ من لزوم طاعته شيئًا، ولا نسبة ما نسبه إلى ربه بزائدةٍ فيها شيئًا، بل استوجب على الناس طاعته فيهما على السواء، فكانت حرمتها في النفوس على سواء، وكانت طاعته من طاعة اللَّه، ومعصيته من معصية اللَّه، فهلا جعل كل أقواله من كلام اللَّه تعالى لو كان الأمر كما يهجس به ذلك الوهم.

وأما فساد هذا القياس من أساسه؛ فلأنه مبني على افتراض باطل، وهو تجويز أن يكون هذا الزعيم من أولئك الذين لا يأبون في الوصول غلى غاية

(١) شبهات حول القرآن وتفنيدها، د. غازي عناية (ص٢١).

إصلاحية أن يعبروا إليها على قنطرة من الكذب والتمويه، وذلك أمر يأباه علينا الواقع التاريخي كل الإباء، فإن من تتبع سيرته الشريفة في حركاته وسكناته، وعباراته وإشاراته، في رضاه وغضبه، في خلوته وجلوته لا يشك في أنه كان أعبد الناس عن المداجاة والمواربة، وأن ذلك كان أخص شمائله وأظهر صفاته قبل النبوة وبعدها كما شهد ويشهد به أصدقاؤه وأعداؤه إلى يومنا هذا: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٦]»[١].

وقد قدمنا أن النبي ﷺ شهد بصدقه الصديق والعدو، وشهد بصدقه من عاشره ومن رآه لأول وهلة، ومن سمع به وبأخباره.

ونزيد على ما سبق شهادة أكبر المعاندين في قريش، ورأس الكفر، وفرعون هذه الأمة أبو جهل؛ فعن علي رضي الله عنه أن أبا جهل قال للنبي ﷺ: إنا لا نكذبك ولكن نكذب بما جئت به، فأنزل اللّه تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣][٢].

٢- ينكرون نزول الوحي على النبي ﷺ عن طريق جبريل عليه السلام وهم يسلمون بنزول:

لماذا يستبعد المستشرقون إمكانية نزول الوحي على النبي ﷺ عن طريق

---

(١) النبأ العظيم (ص١٧ - ٢٠).

(٢) أخرجه الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب: من سورة الأنعام، رقم (٣٠٦٤)، من طريقين الأول مرفوع عن علي رضي الله عنه والثاني مرسل عن ناجية بن كعب، ويتقوى بعضها ببعض لاسيما أن السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٢٦٤) ذكر أن عبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه أخرجوه عن أبي ميسرة أيضًا.

جبريل، مع أن كثيرًا منهم يُسَلِّمُون بأبعد من ذلك؛ فهم يؤمنون إيمانًا كاملاً بأن موسى عليه السلام قد تلقى التوراة من اللَّه تعالى مباشرة من غير واسطة.

٣- تناقض المتهمين للنبي ﷺ بتأليف القرآن:

وانظر إلى هذا التناقض؛ تارة يصفون النبي ﷺ بأنه عبقري، وفنان موهوب، وملهم[(١)] استطاع بذكائه الشديد أن يصنع هذا الدين والقرآن، وتارة يقولون هو مجنون، أو مصروع، أو مهووس[(٢)]؛ ألا ترى كيف أوقعهم بغضهم للحق في هذه التناقضات المضحكات؟

وتأمل كيف استطاعت خديجة رضي الله عنها بفطرتها البسيطة أن تعرف أن ما يأتي النبي ﷺ ليس شيطانًا وجنونًا ولا هَوَسًا حين قالت: «كلا واللَّه لا يُخزيك اللَّه أبدًا؛ إنك لتصلُ الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق»[(٣)].

فما أبعد هذا الكمال الإنساني عن الهوس الذي قد يملي على صاحبه مواقف غريبة وأفعالاً منكرة ينبو عنها الذوق السليم، لذلك فإن بعضهم لا يملك نفسه عندما يقرأ سيرة النبي ﷺ وما يأمر به إلا أن يسلم بنبوته.

يقول توماس كارلايل[(٤)]: «هل رأيتم قط رجلًا كاذبًا يستطيع أن يوجد دينًا

---

(١) انظر: القرآن والمستشرقون، لنقرة (ص٢٨).

(٢) انظر: كتاب رؤية إسلامية للاستشراق، لأحمد غراب ٠ص١٥)، وانظر: القرآن والمستشرقون، لنقرة (ص٢٩).

(٣) متفق عليه (البخاري: كتاب بدء الوحي، باب: بدء الوحي، رقم (٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول اللَّه ﷺ، رقم (١٦٠)).

(٤) تقدمت ترجمته.

عجيبًا؟ إنه لا يقدر أن يبني بيتًا من الطوب، فهو لم يكن عليمًا بخصائص الجير والجص والتراب وما شاكل ذلك فما ذلك الذي يبنيه بيت إنما هو تلٌ من الأنقاض، وكثيب من أخلاط المواد؛ وليس جديرًا أن يبقى على دعائمه اثني عشر قرنًا، يسكنه مائتا مليون من الأنفس[(١)]، ولكنه جدير أن تنهار أركانه فينهدم فكأنه لم يكن، وإني لأعلم أن على المرء أن يسير في جميع أموره طبق قوانين الطبيعة، وإلا أبت أن تجيبه طلبته، كذبٌ ما يذيعه أولئك الكفار وإن زخرفوه حتى تخيلوه حقًا، ومحنةٌ أن ينخدع الناس - شعوبًا وأممًا - بهذه الأضاليل»[(٢)].

ويقول أيضًا: «لقد أصبح من أكبر العار على كل فرد متمدن في هذا العصر، أن يصغي إلى القول: إن دين الإسلام كذب، وإن محمدًا خداع مزور، فإن الرسالة التي أداها ذلك الرجل، وما زالت السراج المنير مدة اثني عشر قرنًا لمئات الملايين من الناس أمثالنا، خلقهم اللَّه الذي خلقنا، أكان أحدهم يظن أن هذه الرسالة التي عاشت بها وماتت عليها هذه الملايين فائقة الحصر والعدّ أكذوبةٌ وخدعة؟ أما أنا فلا استطيع أن أرى هذه الرأى أبدًا، فلو أن الكذب والغش يروجان عند خلق اللَّه هذا الرواج، ويصادفان منهم ذلك التصديق والقبول، فما الناس إذًا إلا بُلْه ومجانين، وما الحياة إلا سخف وعبث؛ كان الأولى ألا تُخلق»[(٣)].

---

(١) تعداد المسلمين جاوز المليار، ولكن هذا العالِم يتحدث عن علمه ووقته حيث إنه ولد سنة ١٧٩٥م.

(٢) قالوا عن الإسلام (ص١٢٣).

(٣) انظر: القرآن والمستشرقون، د. التهامي نقرة (ص٢٥).

٤- أوقات نزوله:

١٤- من الأدلة على أن القرآن ليس من النبي ﷺ: أوقات نزوله[١]؛ فليس للنبي ﷺ اختيار فيما ينزل أو متى ينزل، فقد يأتيه وهو في الفراش مع أهله، أو وهو نائم، أو مع أصحابه، أو وهو سائر، أو على البعير[٢]، وقد يتتابع الوحي ويحمى حتى يشعر بكثرته عليه، وقد يفتر عنه حتى يشتاق إليه، بل قد يمرض من تأخره عليه؛ فقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه: أنه اللَّه تعالى تابع على رسوله ﷺ الوحي قبل وفاته حتى توفاه أكثر ما كان الوحي ثم توفي رسول اللَّه ﷺ بعد[٣].

وعن عائشة رضي الله عنها أن نساء رسول اللَّه ﷺ كن حزبين، فحزبٌ فيه عائشة وحفصة وصفية وسودة، والحزب الآخر أم سلمة وسائر نساء رسول اللَّه ﷺ ... الحديث، وفيه: فقال لفاطمة: «لا تؤذيني في عائشة؛ فإن الوحي لم يأتني وأنا في ثوب امرأة إلا عائشة ...» الحديث[٤].

وعن أنس قال: بينا رسول اللَّه ﷺ ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إفاءةً، ثم رفع رأسه متبسمًا، فقلنا: ما أضحكك يا رسول اللَّه؟ قال: «أنزلت عليَّ آنفًا سورة»، فقرأ بسم اللَّه الرحمن الرحيم: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ

---

(١) المستشرقون وشبهاتهم حول القرآن، للحكيم (ص٥٤).

(٢) انظر: فتح الباري (١/ ٣٠) فقد ذكر أن عند البيهقي حديث: «وإن كان ليوحي إليه وهو على ناقته فيضرب حزامها الأرض من ثقل ما يوحي إليه».

(٣) متفق عليه (البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب: كيف نزل الوحي، رقم (٤٩٨٢)، ومسلم: كتاب التفسير، رقم (٣٠١٦)).

(٤) البخاري، كتاب الهدية وفضلها والتحريض عليها، باب: من أهدى إلى صاحبه وتحرى بعض نسائه، رقم (٢٥٨١).

﴿لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ١ - ٣] ثم قال: «أتدرون ما الكوثر...»[1].

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لجبريل: «الا تزورنا أكثر مما تزورنا»، قال: فنزلت: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا﴾ الآية[2] [مريم: ٦٤].

وعن جندب بن سفيان: أبطأ جبريل على النبي ﷺ، فاشتكى رسول الله ﷺ فلم يقم ليلتين أو ثلاثًا، فجاءت امرأة فقالت: يا محمد إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاثة، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: ١- ٣][3].

فهذه اربعة عشر دليلاً على أن القرآن ليس من النبي ﷺ، وبعضها كافٍ في ذلك، ولكني جمعتها كلها حتى لا يكون للمعترض حجة، والله هو الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

* * * * *

(١) أخرجه مسلم، كتاب الصلاة، باب: حجة من قال البسملة آية من كل سورة، رقم (٤٠٠).

(٢) البخاري، كتاب بدأ الخلق، باب: ذكر الملائكة، رقم (٣٢١٨).

(٣) متفق عليه (البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾، رقم (٤٩٥٠)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب: ما لقي النبي ﷺ، رقم (١٧٩٧))، وأحمد، رقم (١٨٣٢٩)، واللفظ لأحمد.

ملحق
الرد على من أنكر معجزات انشقاق القمر

بعض الطاعنين أنكر معجزات النبي ﷺ وقال: إنه لا يقبلها عقل. ومما يؤسف له أن كثيرًا من المعاصرين على ذلك:

يقول محمد رشيد رضا: «وأما تلك العجائب الكونية، فهي مثار شبهات وتأويلات كثيرة في روايتها وفي صحتها وفي دلالتها، وأمثال هذه الأمور تقع من أناس كثيرين في كل زمان، والمنقول منها عن صوفية الهنود المسلمين أكثر من المنقول عن العهدين العتيق والجديد، وعن مناقب القديسين، وهي من منفرات العلماء عن الدين في هذا العصر»[١]، وقال: «لولا حكاية القرآن لآيات اللَّه التي أيَّد بها موسى وعيسى - عليهما السلام - لكان إقبال أحرار الإفرنج عليه أكثر، واهتداؤهم به أعم وأسرع»[٢].

وهذا الكلام في غاية الخطورة، فكأنه يشير إلى أن اللَّه تعالى صد الناس عن الإيمان بسبب ذكره هذه الآيات، ونقول له: ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٠]؟ وإن المرء ليعجب أشد العجب؛ إذ كيف لرجل مثل رشيد رضا أن يتهم القرآن لأجل أحرار الإفرنج؟!

وقال الشيخ مصطفى المراغي في تقديمه لكتاب «حياة محمد» لمحمد حسين هيكل: «ولم تكن معجزة محمد القاهرة إلا في القرآن، وهي معجزة عقلية، وما أبدع قول البوصيري:

---

(١) تفسير المنار (١١/ ١٥٥).

(٢) المصدر السابق.

لَمْ يَمْتَحِنَّا بِمَا تَعْيَا العُقولُ بِهِ   حِرْصًا عَلَيْنَا فَلَمْ نَرْتَبْ وَلَمْ نَهِمِ[١]

وبمعنى هذا الكلام قال محمد حسين هيكل، وعبد العزيز جاويش، ومحمد فريد وجدي، والشيخ محمود شلتوت، والشيخ محمد عبده[٢]، وغالب المدرسة العقلية على هذا الرأي؛ وهو إنكار جميع المعجزات إلا القرآن، وبعضهم لا ينكرها ولكن يقول: هي ليست بذات أهمية، فضلاً أن تكون دليلاً على صحة نبوة النبي ﷺ.

وقد استخدم بعضهم تأويلات باردة في إنكار المعجزات؛ فبعضهم يتكئ على قضية ورودها في أحاديث آحاد، وأحاديث الآحاد - كما يقولون - لا تُقبل في العقائد[٣]، فإن كانت متواترة أنكر تواترها، ولكنهم شرقوا في بعض الآيات التي نص عليها القرآن مثل: انشقاق القمر[٤]؛ وهي معجزة قد تواترت عن النبي ﷺ أيضًا، فإليك ملخص ما قاله محمد رشيد رضا في

---

(١) حياة محمد، لمحمد هيكل (ص١٣).

(٢) انظر: كتاب منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير، د. فهد بن عبد الرحمن الرومي (ص٥٤٥ - ٥٩٥)، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الخامسة، ١٤٢٢هـ.

(٣) انظر في الرد على شبهة أحاديث الآحاد لا تقبل في العقائد: اشراط الساعة، ليوسف الوابل (ص٤١ - ٥٢)، دار ابن الجوزي، الرياض، ط٨، ١٩٩٧م، ورسالة «وجوب الأخذ بحديث الآحاد في العقيدة والرد على شبه المخالفين»، للألباني رَحِمَهُ اللهُ، دار العلم، بنها، وكتاب «السنة النبوية في كتابات أعداء الإسلام... مناقشتها والرد عليها»، لعماد الشربيني (ص١٢- ٦٢) دار اليقين، المنصورة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م.

(٤) وإنما تكلمت عن هذه الآية فقط مع أنهم ينكرون جميع الآيات والمعجزات سوى القرآن؛ لأن هذه المعجزة من أوضح المعجزات وأكثرها دلالة، فمن أنكرها فهو لغيرها أشد إنكاراً، ولأن رشيد رضا أطال في إنكارها حتى اقتنع بكلامه الكثير ممن قرأه.

إنكار هذه الآية[١]:

أولا: الطعن في السند:

١- إنكار التواتر:

قال: زعم بعض العلماء المتقدمين أن الروايات في انشقاق القمر بلغت درجة التواتر، وهو زعم باطل.

وقال: فلو وقعت لتوفرت الدواعي على نقله بالتواتر؛ لشدة غرابته عند جميع الناس في جميع البلاد ومن جميع الأمم.

٢- التشكيك في صحة السند:

قال: فأما الشيخان فالذي صح عندهما مسند على شرطهما إنما هو عن واحد من الصحابة، يخبر عن رؤية وهو عبد اللّه بن مسعود ﷺ.

وأما رواية أنس وابن عباس ﷺ في الصحيحين فهي مرسلة؛ لأن هذه الحادثة حصلت بمكة قبل أن يولد ابن عباس، وأنس كان في المدينة ولم يشهدها، وأما ما انفرد به مسلم عن ابن عمر، فإن ابن عمر لم يصرح أنه رأى هذه الآية، وأما ما رواه الترمذي عن جبير بن مطعم فهو ضعيف.

ثانيًا: الطعن في المتن:

إذن لم يسلم مما سبق إلا حديث ابن مسعود؛ فهو حديث متفق عليه، وقد شاهد هذه الآية بنفسه، فكان أن طعن في متنه؛ فقال:

---

(١) انظر: مجلة المنار، المجلد ٣٠ الجزء الرابع (ص٢٦٦ - ٢٦٨)، والمجلد ٣٠ الجزء الخامس (ص٣٦٢ - ٣٧٦)، وانظر: كلام الشيخ محمد مصطفى المراغي في تفسير المراغي في تفسير المراغي (٢٧/ ٧٧) بنحوه.

١- في بعض الروايات: انشق القمر ونحن في مكة، وفي بعضها: ونحن في منى.

٢- الروايات فيها اختلاف؛ ففيها: «رأيت القمر منشقًا شقتين؛ شقة على ابي قبيس وشقة على السويداء»، ورواية: «انشق القمر فرقتين؛ فرقة فوق الجبل، وفرقة دونه»، ورواية: «رأيت القمر على الجبل وقد انشق، فأبصرت الجبل بين فرجتي القمر»، ورواية: «فأراهم القمر شقتين حتى رأوا حراء بينهما»، ورواية: «فانشق القمر نصفين؛ نصفًا على الصفا، ونصفًا على المروة».

ثم يقول: «والقاعدة المشهورة عند العلماء في الأدلة المتعارضة، التي يتعذر الجمع بينها تساقطها، ومن الدائر على ألسنتهم: تعادلا فتساقطا».

ثالثًا: إشكال فلكي:

قال: لا يشك عاقل أن خلق السماوات وأجرامها في غاية الإبداع، والنظام لا تفاوت فيه ولا خلل، وأن سنته تعالى لا تتبدل ولا تتحول، فلا يصدق خبر وقوع تغيُّر فيها إلا بخبر قطعي ثابت.

الإشكال الأصولي الأعظم:

هكذا يصف السيد رشيد - عفا اللّه عنه - ما يورده هنا من شبهة على انشقاق القمر حيث يقول: «وثبت بالآيات المحكمة الكثيرة القطعية الدلالة أن الكفار طالبوا النبي ﷺ بآية من الآيات الكونية، التي أوتي مثلها الرسل على الإبهام، وأنهم اقترحوا عليه آيات معينة أيضًا، فلم يجابوا إلى طلبهم، قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا

تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩]، وقال ﷻ: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٠ - ٩٣]، فكيف يمكننا أخذ رواية ابن مسعود في الصحيحين بالقبول، فنصدق أن المشركين طلبوا من النبي ﷺ آية، فأراهم انشقاق القمر؟ وجملة القول: إنه لو صح أن قريشًا سألوا النبي ﷺ آية فأجابهم إلى طلبهم، ثم كفروا لعذَّبهم، ولكنه لم ينقل أن اللَّه تعالى عذب أحدًا منهم عقب ذلك التكذيب»[1].

هذا ما قاله رشيد رضا في نفي هذه المعجزة، ولكن بقي إشكال وهو: ما الذي يقال إذن في معنى الآية ﴿وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾؟ قال رشيد رضا: «فإذا أنت راجعت لغة القرآن في معاجمها لتفهم الآية منها دون هذه الروايات؛ وجدت في «لسان العرب» ما نصه: «والشق الصبح، وشق الصبح يشق شقًا إذا طلع، وفي الحديث: «فلما شق الفجر أمرنا بإقامة الصلاة»، يقال: شق الفجر وانشق إذا طلع» اهـ. فعلى هذا يقال: انشق القمر بمعنى طلع وانتشر نوره، ويكون في الآية بمعنى ظهر الحق ووضح كالقمر يشق الظلام بطلوعه ليلة البدر».

ثم يختم حديثه في هذه المسألة بقوله: «ومن اطمأنت نفسه من المسلمين بقبول سائر تلك الروايات على علاتها، وكان ممن يرى مخالفة النقل القطعي

---

(١) مجلة المنار، المجلد ٣٠، الجزء الخامس (ص٣٦٣ - ٣٦٥)، بتصرف.

والعقل أهون من مخالفة زيد وعمرو، وصدَّق عقله أن تقع هذه الآية، ولا يحدث أحد من الخلفاء الراشدين ولا غيرهم من قدماء الصحابة برؤيتها والاحتجاج بها، فضلاً عن تواترها؛ فليس له أن يجعلها من عقائد المسلمين، وينفر مستقلي الفكر ومتبعي الدليل من المسلمين وغير المسلمين منه».

إلى هنا انتهى رشيد رضا من تقرير هذه المسألة، والذي يبدو للوهلة الأولى أن له حظًا من النظر، ولكن حقيقة الأمر على الضد من ذلك، فإليك الجواب عن كل ما قال:

أولاً: طعنه في السند:

١- إنكاره تواتر الحديث:

لقد نص على تواتر الحديث جهابذة هذا الفن وأمراء الحديث في القديم والحديث؛ نذكر من ذلك:

قال الإمام ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «قد كان هذا في زمان رسول اللَّه ﷺ، كما ورد ذلك في الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة»[(١)].

وقال الكتاني: «قال التاج ابن السبكي في شرحه لمختصر ابن الحاجب الأصلي: الصحيح عندي أن انشقاق القمر متواتر، منصوص عليه في القرآن، مروي في الصحيحين وغيرهما من طرق من حديث شعبة عن سليمان بن مهران، عن إبراهيم، عن أبي معمر، عن ابن مسعود، ثم قال: وله طرق أخرى شتى بحيث لا يُمترى في تواتره.

وقال القاضي عياض في الشفا - بعد ما ذكر أن كثيرًا من الآيات المأثورة

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٦١).

عنه ﷺ معلومة بالقطع - ما نصه: أما انشقاق القمر، فالقرآن نص بوقوعه، وأخبر بوجوده، ولا يعدل عن ظاهر إلا بدليل، وجاء برفع احتماله صحيح الأخبار من طرق كثيرة، فلا يوهن عزمنا خلاف أخرق منحل عرى الدين، ولا يلتفت إلى سخافة مبتدع يلقي الشك في قلوب ضعفاء المؤمنين، بل نرغم بهذا أنفه، وننبذ بالعراء سخفه.

وفي أمال الحافظ ابن الحجر: أجمع المفسرون وأهل السير على وقوعه، قال: ورواه من الصحابة: عليٌّ، وابن مسعود، وحذيفة، وجبير بن مطعم، وابن عمر، وابن عباس، وأنس، وغيرهم.

وقال القرطبي في المفهم: رواه العدد الكثير من الصحابة، ونقله عنهم الجم الغفير من التابعين، فمن بعدهم. اهـ.

وفي المواهب اللدنية: جاءت أحاديث الانشقاق في روايات صحيحة عن جماعة من الصحابة، منهم: أنس، وابن مسعود، وابن عباس، وعلي، وحذيفة، وجبير بن مطعم، وابن عمر، وغيرهم.

وقال ابن عبد البر: روى حديث انشقاق القمر جماعة كثيرة من الصحابة، وروى ذلك عنهم أمثالهم من التابعين، ثم نقله عنهم الجم الغفير إلى أن انتهى إلينا، وتأيَّد بالآية الكريمة. وقال المناوي في شرحه لألفية السير للعراقي: تواترت بانشقاق القمر الأحاديث الحسان، كما حققه التاج السبكي وغيره»[١].

وبنحوه قال ابن حجر[٢].

---

(١) نظم المتناثر في الحديث المتواتر (ص٢٢٢).
(٢) في كتابه فتح الباري (٧/ ٢٢٢).

٢- طعنه في صحة السند:

ولو سلمنا بعدم تواتره، فهو لاشك بصحته، وأما محاولة رشيد رضا تضعيف السند فهي محاولات بائسة، ويكفي في صحته اتفاق البخاري ومسلم على تخريجه في كتابيهما عن طريق ثلاثة من الصحابة، وتصحيح الأئمة له.

وقد نقل الحافظ ابن الصلاح اتفاق الأمة على تلقي ما اتفق عليه الشيخان بالقبول والصحة، ووافقه العراقي على ذلك، ونقله عن جمع غفير من الأئمة[١].

وأما دعواه أن حديث أنس وابن عباس من قبيل مرسل الصحابي فنقول: ماذا في هذا؟! فمرسل الصحابي مقبول عند علماء الحديث: قال ابن الصلاح: «ثم إنا لم نعد في أنواع المرسل ما يسمى في أصول الفقه مرسل الصحابي، مثل ما يرويه ابن عباس وغيره من أحداث الصحابة عن رسول الله ﷺ ولم يسمعوه منه؛ لأن ذلك في حكم الموصول المسند»[٢].

وقال الحافظ العراقي: «المحدثون وإن ذكروا مراسيل الصحابة، فإنهم لم يختلفوا في الاحتجاج بها»[٣].

ثم لو سلمنا بعدم قبول رواية مرسل الصحابي - وهو مخالف للإجماع بالاحتجاج بها كما علمت -، فقد رواه ابن مسعود مشاهدة، وهو ليس

---

(١) انظر: مقدمة ابن الصلاح مع شرحها للعراقي (ص٤٣).

(٢) علوم الحديث، للحافظ أبي عمرو بن الصلاح (ص٧٥)، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٩٥م، وفي حاشيته كتاب «التقييد والإيضاح لما أغلق وأطلق من مقدمة ابن الصلاح» للحافظ العراقي.

(٣) المرجع السابق (ص٧٩).

بمرسل في حقه، وكذلك رواه ورآه علي بن أبي طالب، وحذيفة، وجبير بن مطعم، وابن عمر ﷺ أجمعين[١].

ثانيًا: طعنه في متن الحديث:

وأما تضعيفه حديث ابن مسعود المتفق عليه بسبب اضطراب ألفاظه - كما يزعم - فهو في غاية العجب.

فرواية: «انشق القمر ونحن في مكة»، ورواية «ونحن في منى» لا تعارض بينهما إذ منى من مكة، أو أن المراد بمكة يعني قبل الهجرة. قال ابن حجر: «والجمع بين قول ابن مسعود «تارة بمنى وتارة بمكة» إما باعتبار التعدد إن ثبت، وإما بالحمل على أنه كان بمنى، ومن قال: كان بمكة لا ينافيه؛ لأن من كان بمنى كان بمكة من غير عكس، ويؤيده أن الرواية التي فيها بمنىً قال فيها: «ونحن بمنىً» والرواية التي فيها بمكة لم يقل فيها «ونحن» وإنما قال: «انشق القمر بمكة» يعني: أن الانشقاق كان وهم بمكة قبل أن يهاجروا إلى المدينة، وبهذا يندفع دعوى الداوودي أن بين الخبرين تضادًا، والله أعلم»[٢].

وقال: «وقد وقع عند ابن مردويه بيان المراد فأخرجه من وجه آخر عن ابن مسعود قال: «انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ ونحن بمكة قبل أن نصير إلى المدينة» فوضح أن مراده بذكر مكة الإشارة إلى أن ذلك وقع قبل الهجرة، ويجوز أن ذلك وقع وهم ليلتئذ بمنى»[٣].

ورواية: «رأيت القمر على الجبل وقد انشق، فأبصرت الجبل بين فرجتي

---

(١) انظر: فتح الباري (٦/ ٧٣٠).

(٢) فتح الباري (٧/ ٢٢٣).

(٣) المرجع السابق.

القمر»، ورواية: «فأراهم القمر شقتين حتى رأوا حراء بينهما»؛ لا تعارض بينهما البتة، وكذا رواية: «انشق القمر فرقتين؛ فرقة فوق الجبل، وفرقة دونه» فإنها قريبة من معناهما.

فلم يبق إلا ما ظاهره التعارض بين هاتين الروايتين «رأيت القمر منشقًا شقتين؛ شقة على ابي قبيس، وشقة على السويداء»، ورواية: «فانشق القمر نصفين؛ نصفًا على الصفا، ونصفًا على المروة».

وهذا ليس فيه إشكال؛ فإن نظر الإنسان يختلف بحسب الزواية التي ينظر منها؛ فمرة يرى القمر فوق أبي قبيس، ثم إذا تحرك رآه على الصفا وهكذا، أو هو بحسب اختلاف جهة الناظرين، فبعضهم يراه من زاوية والآخر يراه من زواية أخرى.

وقال ابن حجر: «لفظ «رأيت القمر منشقًّا شقتين، شقة على أبي قبيس، وشقة على السويداء» والسويداء بالمهملة والتصغير ناحية خارجة مكة عندها جبل، وقول ابن مسعود «على أبي قبيس» يحتمل أن يكون رآه كذلك وهو بمنى، كأن يكون على مكان مرتفع بحيث رأى طرف جبل أبي قبيس، ويحتمل أن يكون القمر استمر منشقًّا حتى رجع ابن مسعود من منى إلى مكة، فرآه كذلك وفيه بعد، والذي يقتضيه غالب الروايات أن الانشقاق كان قرب غروبه، ويؤيد ذلك إسنادهم الرؤية إلى جهة الجبل، ويحتمل أن يكون الانشقاق وقع أول طلوعه؛ فإن في بعض الروايات أن ذلك كان ليلة البدر، أو التعبير بأبي قبيس من تعبير بعض الرواة؛ لأن الغرض ثبوت رؤيته منشقًّا، إحدى الشقتين على جبل، والأخرى على جبل آخر، ولا يغاير ذلك قول الراوي الآخر، رأيت الجبل بينهما، أي: بين الفرقتين؛ لأنه إذا ذهبت فرقة عن يمين الجبل، وفرقة عن يساره مثلاً

صدق أنَّه بينهما، وأي جبل آخر كان من جهة يمينه أو يساره صدق أنها عليه أيضًا»[١].

وفي رواية لمسلم من حديث أنس ﷺ: «أن أهل مكة سألوا رسول اللَّه ﷺ أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر مرتين»[٢].

وهذه الرواية تقضي على الإشكالات، فهي تدل أن الانشقاق حصل مرتين، فمرة رأوه فوق جبل أبي قبس ومرة عند الصفا، وإن كان بعض العلماء يشكك في هذه اللفظة (مرتين) ويرى أنها (فرقتين)[٣].

ولو سلمنا التعارض التام بين هاتين اللفظتين من كل جهة؛ فهذا لا يضر في أصل الحديث، وأقصى ما فيه أن ابن مسعود، أو أحد الرواة عنه كان يهم في اسم الجبلين، فتارة يقول: «شقة على أبي قبيس وشقة على السويداء»، وتارة: «فانشق القمر نصفين؛ نصفًا على الصفا، ونصفًا على المروة»، وأما أصل الحديث وهو الشاهد منه، أن القمر انشق؛ فليس فيه أي اضطراب أو نسيان أو وهم.

ولو سلمنا أن هذا الاضطراب يسقط الاحتجاج بالحديث؛ فما القول إذن في حديث علي، وحذيفة، وجبير بن مطعم، وابن عمر ﷺ أجمعين؟

ثالثًا: الإشكال الفلكي:

دعواه وجوب وجود النقل القطعي على هذه الحادثة، فنقول: قد وُجِدَ. فالحديث منقول في أصح الكتب، بل نص العلماء على تواتره، بل ذكره اللَّه

---

(١) فتح الباري (٧/ ٢٢٣).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب: انشقاق القمر، رقم (٢٨٠٢).

(٣) انظر: فتح الباري (٧/ ٢٢٢).

في كتابه، بل أجمع العلماء على وقوعه، بل حتى الكفار قد ذكروه في كتبهم ممن عاصروا الحادثة، فقد ذكر ابن كثير في البداية والنهاية: «إنه قد ذكر غير واحد من المسافرين أنهم شاهدوا هيكلاً بالهند مكتوبًا عليه أنه بُني في الليلة التي انشق القمر فيها»[١].

ويؤيد هذا ما نقله السيد رشيد رضا نفسه حيث قال: «على أن الحافظ المزي نقل عن شيخ الإسلام ابن تيمة أن بعض المسافرين ذكر أنه رأى في بلاد الهند بناء قديمًا مكتوبًا عليه أنه بُني ليلة انشق القمر»، ثم قال رشيد رضا: «وأذكر أنني رأيت في بعض الكتب أو الصحف أن هذا رُؤي في بلاد الصين»[٢].

و«في مقابلة تلفزيونية للاستاذ الدكتور زغلول النجار سأله مقدم البرنامج عن هذه الآية؛ ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر: ١]، هل فيها إعجاز قرآني علمي؟ فأجاب الدكتور زغلول قائلاً: هذه الآية لها معي قصة؛ فمنذ فترة كنت أحاضر في جامعة كارديف (Cardif) غرب بريطانيا، وكان الحضور خليطًا من المسلمين وغير المسلمين، وكان هناك حوار حي للغاية عن الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، وفي أثناء هذا الحوار وقف شاب من المسلمين وقال: يا سيدي! هل ترى في قول الحق - تبارك وتعالى -: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ لمحة من لمحات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم؟ فأجبته: لا؛ فالإعجاز العلمي يفسره العلم، أما المعجزات فلا يستطيع العلم أن يفسرها، فالمعجزة أمر خارق

---

(١) البداية والنهاية، لابن كثير (٦/ ٧٧).

(٢) مجلة المنار، المجلد ٣٠، الجزء الخامس (ص٣٦٢).

للعادة فلا تستطيع السنن أن تفسرها، وانشقاق القمر معجزة حدثت لرسول اللَّه ﷺ تشهد له بالنبوة والرسالة، والمعجزات الحسية شهادة صدق على من رآها، ولولا ورودها في كتاب اللَّه تعالى وفي سنة رسوله ﷺ ما كان علينا - نحن مسلمي هذا العصر - أن نؤمن بها، ولكننا نؤمن بها لورودها في كتاب اللَّه تعالى وفي سنة رسوله ﷺ؛ ولأن اللَّه تعالى قادر على كل شيء، قال: ثم ذكرت لهم الروايات الثابتة في انشقاق القمر.

يقول الدكتور زغلول: وبعد أن أتممت حديثي وقف شاب مسلم بريطاني عرف بنفسه وقال: أنا داود موسى بيتكوك رئيس الحزب الإسلامي البريطاني، ثم قال: يا سيدي! هل تسمح لي بإضافة؟ قلت له: تفضل. قال: وأنا أبحث عن الأديان - قبل أن أسلم - أهداني أحد الطلاب المسلمين ترجمة لمعاني القرآن الكريم، فشكرته عليها وأخذتها إلى البيت، وحين فتحت هذه الترجمة كانت أول سورة اطَّلعت عليها سورة القمر، وقرأت: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ فقلت: هل يعقل هذا الكلام؟! هل يمكن للقمر أن ينشق ثم يلتحم؟! وأي قوة تستطيع عمل ذلك؟! يقول الرجل: فصدَّتني هذه الآية عن مواصلة القراءة، وانشغلت بأمور الحياة، لكن اللَّه تعالى يعلم مدى إخلاصي في البحث عن الحقيقة، فأجلسني ربي أمام التلفاز البريطاني، وكان هناك حوار يدور بين معلق بريطاني وثلاثة من علماء الفضاء الأمريكيين، وكان هذا المذيع يعاتب هؤلاء العلماء على الإنفاق الشديد على رحلات الفضاء، في الوقت الذي تمتلئ فيه الأرض بمشكلات الجوع والفقر والمرض والتخلف، وكان يقول: لو أن هذا المال أنفق على عمران الأرض لكان أجدى وأنفع، وجلس هؤلاء العلماء الثلاثة يدافعون عن وجهة نظرهم،

ويقولون: إن هذه التقنية تطبق في نواح كثيرة في الحياة، حيث إنها تطبق في الطب والصناعة والزراعة، فهذا المالَ ليس مالاً مهدرًا، لكنه أعاننا على تطوير تقنيات متقدمة للغاية... في خلال هذا الحوار جاء ذكر رحلة إنزال رجل على سطح القمر باعتبار أنها أكثر رحلات الفضاء كلفة؛ فقد تكلفت أكثر من مائة ألف مليون دولار، فصرخ فيهم المذيع البريطاني وقال: أيُّ سفه هذا؟! مائة ألف مليون دولار لكي تضعوا العَلَم الأمريكي على سطح القمر؟ فقالوا: لا، لم يكن الهدف وضع العلم الأمريكي فوق سطح القمر، كنا ندرس التركيب الداخلي للقمر فوجدنا حقيقة لو أنفقنا اضعاف هذا المال لإقناع الناس بها ما صدقنا أحد، فقال لهم: ما هذه الحقيقة؟ قالوا: هذا القمر انشق في يوم من الأيام ثم التحم. قال لهم: كيف عرفتم ذلك؟ قالوا: وجدنا حزامًا من الصخور المتحولة يقطع القمر من سطحه إلى جوفه إلى سطحه، فاستشرنا علماء الأرض وعلماء الجيولوجيا، فقالوا: لا يمكن أن يكون هذا قد حدث إلا إذا كان هذا القمر قد انشق ثم التحم!! يقول الرجل المسلم «رئيس الحزب الإسلامي البريطاني»: فقفزت من الكرسي الذي أجلس عليه وقلت: معجزة تحدث لمحمد ﷺ قبل ألف وأربعمائة سنة يسخر اللَّه تعالى الأمريكان لإنفاق أكثر من مائة ألف مليون دولار لإثباتها للمسلمين؟! لابد أن يكون هذا الدين حقًا، يقول: فعدت إلى المصحف، وتلوت سورة القمر، وكانت مدخلاً لقبول الإسلام دينًا»[١].

ولو سلمنا أنه لم يوجد النقل عند غير المسلمين؛ فإنه قد يكون بسبب اختلاف مطالع القمر، ولأنه لم يستمر لمدة طويلة، بل للحظات ثم

(١) جريدة الوطن الكويتية، العدد (٩٧٤٧)، السبت ٢٩/٣/٢٠٠٣م، مقال للشيخ حامد العلي بعنوان: روعة انتصار الإسلام.

رجع، فلم يره إلا من استعدَّ له ورصده، وغير ذلك من العلل التي ذكرها ابن حجر في الفتح[١].

يقول المباركفوري شارح الترمذي رَحِمَهُ اللَّهُ: «اعلم أنَّ أحاديث الباب صحيحةٌ صريحةٌ في ثبوت معجزة انشقاق القمر، قال ابن عبد البر: قد روى هذا الحديث جماعةٌ كثيرةٌ من الصحابة، وروى ذلك عنهم أمثالهم من التابعين ثم نقله عنهم الجَمُّ الغفير إلى أن انتهى إلينا، ويؤيد ذلك بالآية الكريمة فلم يبق لاستبعاد من استبعد وقوعه عذرٌ، وقد يطلع على قومٍ قبل طلوعه على آخرين، وأيضًا فإن زمن الانشقاق لم يطل ولم تتوفر الدواعي على الاعتناء بالنظر إليه ومع ذلك فقد بعث أهل مكة إلى آفاق مكة يسألون عن ذلك، فجاءت السفار وأخبروا بأنهم عاينوا ذلك، وذلك لأن المسافرين في الليل غالبًا يكونون سائرين في ضوء القمر، ولا يخفى عليهم لك، وقال أبو إسحاق الزجاج في معاني القرآن: أنكر بعض المبتدعة الموافقين لمخالفي الملة انشقاق القمر، ولا إنكار للعقل فيه؛ لأن القمر مخلوقٌ للَّه يفعل فيه ما يشاء، كما يكوره يوم البعث ويفنيه، وأما قول بعضهم: لو وقع لجاء متواترًا واشترك أهل الأرض في معرفته، ولما اختص بها أهل مكة، فجوابه: أن ذلك وقع ليلاً وأكثر الناس نيامٌ، والأبواب مغلقةٌ، وقل من يراصد السماء إلا النادر، وقد يقع بالمشاهدة في العادة أن ينكشف القمر وتبدو الكواكب العظام وغير ذلك في الليل ولا يشاهدها إلا الآحاد، فكذلك الانشقاق كان آيةً وقعت في الليل لقومٍ سألوا واقترحوا فلم يتأهب غيرهم لها، ويحتمل أن يكون القمر ليلتئذٍ كان في بعض المنازل التي تظهر لبعض أهل الآفاق دون بعض، كما

---

(١) فتح الباري (٧/ ٢٢٤ - ٢٢٥).

يظهر الكسوف لقوم دون قومٍ.

وقال الخطابي: انشقاق القمر آيةٌ عظيمةٌ لا يكاد يعدلها شيءٌ من آيات الأنبياء، وذلك أنه ظهر في ملكوت السماء خارجًا عن جملة طباع ما في هذا العالم المركب من الطبائع، فليس مما يطمع في الوصول إليه بحيلةٍ، فلذلك صار البرهان به أظهر، وقد أنكر ذلك بعضهم، فقال: لو وقع ذلك لم يجز أن يخفى أمره على عوام الناس؛ لأنه أمرٌ صدر عن حس ومشاهدةٍ، فالناس فيه شُركاءُ والدَّواعي متوفرةٌ على رؤية كل غريبٍ، ونقل ما لم يعهد فلو كان لذلك أصلٌ لخلد في كتب أهل التسيير والتنجيم؛ إذ لا يجوز إطباقهم على تركه وإغفاله مع جلالة شأنه ووضوح أمره، والجواب عن ذلك أنه هذه القصة خرجت عن بقية الأمور التي ذكروها، لأنه شيء طلبه خاص من الناس فوقع ليلاً؛ لأن القمر لا سلطان له بالنهار، ومن شأن الليل أن يكون أكثر الناس فيه نيامًا ومستكنين بالأبنية، والبارزُ بالصحراء منهم إذا كان يقظان يحتمل أنه كان في ذلك الوقت مشغولاً فما يلهيه من سمرٍ وغيره، ومن المستبعد أن يقصدوا إلى مراصد مركز القمر ناظرين إليه لا يغفلون عنه، فقد يجوز أنه وقع ولم يشعر به أكثر الناس، وإنما رآه من تصدى لرؤيته ممن اقترح وقوعه، ولعل ذلك إنما كان في قدر اللحظة التي هي مدرك البصر.

وقال الرازي في تفسيره الكبير - بعدما أثبت هذه المعجزة - ما لفظه: وأما المؤرخون تركوه؛ لأن التواريخ في أكثر الأمر يستعملها المنجم وهو لما وقع الأمر قالوا بأنه مثل خسوف القمر، وظهور شيء في الجو على شكل نصف القمر في موضع آخر فتركوا حكايته في تواريخهم. والقرآن أدل دليلٍ، وأقوى مثبتٍ له، وإمكانه لا يشك فيه، وقد أخبر عنه الصادق

فيجب اعتقاد وقوعه، وحديث امتناع الخرق والالتئام حديث اللئام، وقد ثبت جواز الخرق والتخريب على السماوات، وذكرناه مرارًا فلا نعيده»[(١)].

ويكفي لإثباته أن جاء في القرآن ولم ينكره كفار قريش مع حرصهم على تكذيب القرآن.

رابعًا: الإشكال الأصولي:

فالرد على هذا الإشكال بالمنع والتسليم:

أ- أما المنع؛ فنمنع أن هذه الآية جاءت بعد سؤال المشركين؛ قال ابن حجر رحمه الله: «ولم أر في شيء من طرقه أن ذلك كان عقب سؤال المشركين إلا في حديث أنس»[(٢)]، وأنس رضي الله عنه لم يعاصر القصة بشهادة رشيد رضا، ولو سلمنا أنه كان بعد سؤال المشركين، فنمنع أنه لم يأتهم العذاب، فقد أخذهم اللَّه بالسنين حتى أكلوا الميتات، فقد ذكر ابن مسعود: أن قريشًا أخذتهم سنةٌ حصت كل شيءٍ، حتى أكلوا الجلود والميتة والجيف، وينظر أحدهم إلى السماء فيرى الدخان من الجوع، فأتاه أبو سفيان فقال: يا محمد إنك تأمر بطاعة اللَّه وبصلة الرحم، وإن قومك قد هلكوا فادع اللَّه لهم، فقال اللَّه تعالى: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ﴾ [الدخان: ١٠] إلى قوله: ﴿إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ ۝١٥ يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ [الدخان: ١٥ - ١٦]، فالبطشة يوم بدرٍ، وقد مضت الدخان والبطشة والزام وآية الروم»[(٣)].

---

(١) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، للمباركفوري (٦/ ٣٤٢ - ٣٤٣).

(٢) فتح الباري (٧/ ٢٢١).

(٣) متفق عليه (البخاري: كتاب الجمعة، باب: دعاء النبي ﷺ، رقم (٩٦٢)، ومسلم: كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب: الدخان، رقم (٢٧٩٨)).

وعذَّبهم أيضًا في غزة بدر بقتل سبعين وأسر سبعين، وهي البطشة كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

وفي غزوة الخندق بالريح الباردة التي أكفأت قدورهم، وقلعت خيامهم، وردَّتهم مغلوبين، مدحورين مهزومين، كما في سورة الأحزاب.

وفي فتح مكة حين هُزموا وجُرِّدوا من ملكهم لمكة، وكانت خاتمة طغيانهم، ونهاية عزهم وشرفهم، فكل هذا من العذاب.

ب- أما التسليم؛ فيتضح من النقاط التالية:

١- لو سلمنا أنهم لم يعذَّبوا؛ فإنما كان ذلك لعلة، وهي وجود النبي ﷺ بين أظهرهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

٢- وأجاب الخطابي عن هذا بجواب آخر؛ فقال ما ملخصه: إن الذين سألوا هذه الأية ليسوا كل أهل مكة، بل هم أعداد قليلة[١]، فهذه الآية لم يجمع لها الناس في صعيد واحد، كما حصل مع موسى عليه السلام بل هي حادثة عابرة.

٣- ومن أسباب تخلف العذاب أن النبي ﷺ هو آخر الأنبياء، وأمته هي آخر الأمم، كما قال ﷺ: «نحن الآخرون الأولون يوم القيامة»[٢]، فلو أهلكها اللّه تعالى لما بقي أحد يعبد اللّه تعالى وتذهب كثير من السنن

(١) انظر: فتح الباري (٧/ ٢٢٥) بتصرف وترتيب.

(٢) متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه: (البخاري: كتاب الجمعة، باب: فرض الجمعة، رقم (٨٣٦)، ومسلم: كتاب الجمعة، باب: هداية هذه الأمة ليوم الجمعة، رقم (٨٥٥))، واللفظ لمسلم.

الكونية مثل: سنة الاختلاف، وسنة المدافعة، وغيرها.

٤- ومن الأسباب ايضًا أن النبي ﷺ دعا ربه أن لا يهلك أمته بسنةٍ عامة؛ كما جاء عن ثوبان قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إن اللَّه زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زُوي لي منها، وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض، وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنةٍ عامةٍ، وأن لا يسلط عليهم عدوًا من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم، وإن ربي قال: يا محمد إني إذا قضيت قضاءً فإنه لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنةٍ عامةٍ، وأن لا أسلط عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم، يستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضًا، ويسبي بعضهم بعضًا»[1].

٥- هذه الأية تختلف عن آيات الأمم السابقة، فهي ليست آية النبي ﷺ الكبرى - كما هي الحال في نبي اللَّه صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ مثلًا - بل كانت آية عارضة سأله بعض أهل مكة، فمن حرص النبي ﷺ على هداية قومه سأل اللَّه أن يحقق له هذه الأية، فاستجاب اللَّه تعالى لنبيه وحبيبه، ليس لأجلهم ولكن لأجل نبيه.

وذلك لأن منهج القرآن عند سؤال الكفار آية أن يرجعهم إلى أمرين؛ إما الآيات الشرعية (القرآن) أو الآيات الكونية (مخلوقات اللَّه)[2]؛ فمن الرد إلى

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب: هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض، رقم (٢٨٨٩).

(٢) انظر: آيات اللَّه في الكون، د. عبد اللَّه شحاته (ص٣)، مكتبة نهضة مصر للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م.

الآيات الشرعية قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٠ - ٥١].

ومن الرد إلى الآيات الكونية قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٧ - ٣٨].

وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

وأغلب آيات سورة الأنعام من هذا الباب؛ كقوله ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٩٥ - ٩٨].

وتستمر الآيات في هذا النحو إلى أن قال ﷻ: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩]، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ

وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١].

وذلك أن من لم يؤمن بسبب هذين الأمرين - الآيات الشرعية والآيات الكونية - فلن يؤمن أبدًا، فهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١].

وقال ﷺ مؤكدًا على هذه الحقيقة: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾(١) [الأنعام: ٢٥]، فهو يستمع للقرآن - وهي الآيات الشرعية - ويرى كل آية - وهي الآيات الكونية - ومع هذا يقول أساطير الأولين.

ويقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦ - ٩٧].

ويقول تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦]، يعني: سبب ذلك أنهم كانوا يكذبون بآيات الله الكونية والشرعية، فالله ﷻ يعلم أن هذه الآية - انشقاق القمر - لن تؤثر فيهم، ولكن استجابة لنبيه حتى يرى بعينه هذه الحقيقة، فينتقل من علم اليقين

(١) يعني: وأنت تتلو القرآن. انظر: تفسير الجلالين ٠ص١٦٥)، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٩١م.

إلى حق اليقين، لذلك لم يسأل النبي ﷺ ربه آية أخرى[١].

٦- هذه الأية لم تكن مشروطة بالعذاب، كما حصل من عيسى عليه السلام عندما سأل ربه أن ينزل على قومه مائدة من السماء، فقال الله تعالى: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ١١٥].

وعلى هذا تكون أمة نبينا محمد ﷺ مستثناة من هذا الحكم.

خامسًا: نزيد على ذلك أنه قد تم إجماع العلماء على وقعه:

قال ابن كثير في تفسيره: «وهذا أمر متفق عليه بين العلماء؛ أي: انشقاق القمر، قد وقع في زمان النبي ﷺ، وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات»[٢].

وقال في البداية والنهاية: «وقد اتفق العلماء مع بقية الأئمة على أن انشقاق القمر كان في عهد الرسول ﷺ، وقد وردت الأحاديث بذلك من طرق تفيد القطع عند الأمة»[٣]. ثم ساق الأحاديث الواردة في ذلك، وقرر بعدها «فهذه طرق عن هؤلاء الجماعة من الصحابة، وشهرة هذا الأمر تغني عن إسناده مع وروده في الكتاب العزيز»[٤].

وفي نظم السيرة لابي الفضل العراقي:

فصار فرقتين فرقة علت وفرقة للطود منه نزلت

---

(١) انظر: الإعجاز العلمي في القرآن، لسيد الجميلي (ص١٠)، دار مكتبة الهلال، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٢م، وآيات الله في الكون، د. عبد الله شحاته (ص٧ - ١٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٦١).

(٣) البداية والنهاية (٦/ ٧٤).

(٤) المرجع السابق (٦/ ٧٧).

وذاك مرتين[١] بالإجماع والنص والتواتر السماعي[٢]

«وقال الحافظ ابن حجر: أجمع المفسرون وأهل السير على وقوعه»[٣].

وأما قول رشيد رضا - فيما نقلناه عنه تحت عنوان الإشكال الأصولي الأعظم -: «فليس له أن يجعلها من عقائد المسلمين»؛ فهذا كلام غريب؛ إذ كيف لا تكون من عقائد المسلمين، وقد نصَّ اللَّه تعالى عليها في كتابه، وتواترت سنة النبي ﷺ في ذكرها وتتابع علماء المسلمين على جعلها من عقائد المسلمين، وذكرها في دلائل النبوة، كما فعل البيهقي وأبو نعيم، وكل من تكلم عن دلائل النبوة ذكر فيها هذه الآية[٤]؟

ثم لو سلم لرشيد رضا كل ما تقدم، وأن هذه المعجزة غير ثابتة، فماذا يقول في قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ [الإسراء: ١]؟ هل يُنكر أيضًا حادثة الإسراء والمعراج؟ وهل ينكر حادثة الفيل؟ وكلها ثابتة في القرآن.

ونحن نسأل من أنكر معجزات النبي ﷺ: هل هو ينكر مبدأ المعجزات، ويرى أنه لا يوجد شيء اسمه خرق عادة، أم أنه ينكر آحاد هذه المعجزات التي حصلت للنبي ﷺ؟

---

(١) قال تلميذه الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٧/ ٢٢٥) ما ملخصه: وأظن قوله بالإجماع يتعلق بانشق لا بمرتين، فإني لا أعلم من جزم من علماء الحديث بتعدد الانشقاق في زمنه ﷺ، وفي المواهب لعل قائل مرتين أراد به فرقتين، وهذا الذي لا يتجه غيره جميعاً بين الروايات.

(٢) نظم المتناثر للكتاني (ص٢٢٣).

(٣) المرجع السابق.

(٤) وقد تقدم الإحالة إلى هذه الكتب في أول المبحث.

إن كان ينكر آحاد هذه المعجزات مع إيمانه بمبدأ المعجزات - كما هي الحال عند معظم المستشرقين والمعاصرين - قلنا له: بما أنك تؤمن بإمكان وقوع المعجزات فليس لك حق أن تتخير منها ما تشاء فتقبله وترد منها ما تشاء، بل الذي يخرق العادة هو اللَّه تعالى، واللَّه يفعل ما يشاء لا معقب لحكمه، فإذا ثبت النقل فهذا كافٍ في إثبات صحتها، وكون العقل لا يقبلها هذا أمر لابد منه؛ إذ إن صفة المعجزة أنها تحير العقول وتخرق العادات.

وأما إن كان يرفض مبدأ المعجزة بالكلية؛ قلنا له: إنك بهذا الرفض قد أنكرت نبوة جميع الرسل والنبيين؛ إذ إن الرسل والأنبياء إنما يدلّلون على صحة قولهم بخرق العادة لهم، التي لا يخرقها اللَّه تعالى إلا لصادق، وبهذا تُسَلّم لهم الجموع وتنقاد، فإنكار المعجزات كلها كفر بالأنبياء، وتكذيب للَّه تعالى، وإلحاد في جميع الأديان.

وبهذا لا يبقى للمنكر أي حجة في إنكار وقوع هذه الحادثة.

أرأيت كيف فتح بعض المعاصرين الباب للطاعنين؟! عفا اللَّه عنهم وغفر لهم.

وبهذا يكون انتهينا من هذا الكتاب، الذي أسأل اللَّه تعالى أن يجعله ذخرًا في السماء، ويغفر لنا ما بدر فيه من أخطاء.

وآخر دعوانا أن الحمد للَّه رب العالمين

والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين

وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين

المراجع

- الإبداعات الطبية لرسول الإنسانية، مؤسسة المعارف في بيروت، ط١، ١٩٩٥م.
- البشارات العجاب في صحف أهل الكتاب؛ ٩٩ دليلًا على وجود النبي المبشر به في التوراة والأنجيل، د. صلاح صالح الراشد، دار ابن حزم في بيروت، ط١، ١٩٩٨م.
- البشارة بنبي الإسلام في التوراة والإنجيل، د. أحمد حجازي السقا، دار الجيل في بيروت، ط٢، ١٩٨٩م.
- تثبيت دلائل النبوة، للقاضي عبد الجبار الهمذاني، حققه: د. عبد الكريم عثمان، دار العربية للطباعة والنشر، بيروت.
- تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم)، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٢٠هـ.
- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٨٨م.
- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، لشيخ الغسلام ابن تيمية، تحقيق: د. علي بن ناصر وآخرين، الرياض، دار العاصمة، ط١، ١٤١٤هـ.
- حتى الملائكة تسأل، رحلة إلى الإسلام في أمريكا، د. جفري لانغ، ترجمة: د. منذر العبسي، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.
- حياة محمد، لاميل درمنغم، ترجمة: عادل زعيتر، ط٢، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩١١م.
- الخصائص الكبرى، للسيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٥م.
- ديوان عبد الله بن رواحة، جمع ودراسة وتحقيق: د. حسن محمد باجودة، القاهرة، مكتبة التراث، ١٩٧٢م.

- الرحيق المختوم في سيرة المعصوم، للمباركفوري، دار الحديث، القاهرة.
- الرسالة المستطرفة، للكتاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٥م.
- روائع البيان في تفسير آيات الأحكام من القرآن، لمحمد علي الصابوني، دار البشائر.
- الروض الأنفق في شرح سيرة ابن هشام، للسهيلي، تحقيق: عبد الرحمن الوكيل، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ١٩٩٣م.
- سنن ابن ماجه، دار إحياء التراث العربي، مصر، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.
- سنن أبي داود، المكتبة العصرية، بيروت.
- سنن الترمذي، دار الفكر، ١٩٨٣م، تحقيق: الشيخ أحمد شاكر.
- سنن الدارمي، تحقيق زمرلي، بيروت، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.
- سنن النسائي، دار البشائر، بيروت، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة.
- سير أعلام النبلاء، للذهبي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٨، ١٩٩٢م، تحقيق: شعيب الأرناؤوط.
- صحيح البخاري، تحقيق: الدكتور مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة، ١٩٨٧م.
- الصحيح المسند من دلائل النبوة، للوادعي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط٢، ١٩٨٧م.
- صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، مصر، ١٩٧٢م.
- الصراع من أجل الإيمان، انطباعات أمريكي اعتنق الإيمان، د. جفري لانغ، ترجمة: د. منذر العبسي، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٩٩٨م.
- قالوا عن الإسلام، د. عماد الدين خليل، الندوة العالمية للشباب الإسلامي،

الرياض، ط١، ١٩٩٢م.
- كتاب الداعي إلى الإسلام لكمال الدين الأنباري، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط١، ١٩٨٨م.
- لسان العرب، ابن منظور الإفريقي، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى.
- ماذا تقول التوراة والإنجيل عن محمد ﷺ؟ أحمد ديدات، دار ابن الجوزي في الدمام، ط١، ١٩٩٠م، ترجمة وتعليق: وليد عثمان.
- محمد في التوراة والإنجيل والقرآن، إبراهيم خليل أحمد، إصدار مكتبة الوعي العربي، القاهرة، ط٢، ١٩٦٥م.
- مختار الصحاح، الرازي، تحقيق: محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ١٩٩٥م.
- المعجم المفصل في الأدب، د. محمد التونجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.
- المهتدون إلى الإسلام من قساوسة النصارى وأخبار اليهود حتى القرن التاسع الهجري، د. خالد السيوطي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٢م.
- النبأ العظيم، للعلامة د. محمد عبد الله دراز، دار طيبة للنشر، ط١، ١٩٩٧م.
- هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، لابن قيم الجوزية، نشر الجامعة الإسلامية في المدينة النبوية.

الفهرس